من محاور شعر أبي القاسم الشابي

النزعة الإنسانية
مصادرها وظواهرها
رؤية تطبيقية

بقلم:

دكتور/ محمد جاد البنا

مدرس بقسم الأدب والنقد

من محاور شعر أبى القاسم الشابى

النزعة الإنسانية
مصادرها وظواهرها
رؤية تطبيقية

دكتور / محمد جاد البنا
مدرس الأدب والنقد

.....

مداخل ممهدة :

كلما التقينا بالشاعر التونسى أبى القاسم الشابى شملتنا الحيرة وكأننا نسأل أنفسنا : من أى النوافذ نطل على هذا الحقل الشعرى الخصب لهذا الشاعر (عريض الموهبة ، عميق التجربة ، متعدد الرؤى والآفاق) ؟

(١)

لقد بدأ الشابى منكفئًا على ذاته ، غارقًا فى آلامه ومحنه الخاصة يهرب من مجتمعه داخل قوقعة الذات ، كارهًا لمن لم ينصفوه ، ولم يحتفوا بشعره وموهبته وتجربته ، حانقًا على من لم يستجيبوا لصرخاته المجلجلة من بنى قومه ووطنه ليحرروا أنفسهم ووطنهم ، بينما استجاب له أهل المشرق العربى فأجلوا موهبته وقدروها ، وأقبلوا عليه إقبالا يرضى زهو الشاعر المطبوع وغروره ، وحاجته إلى من يأخذ بيده فيمنحه أو سمة الاستحقاق والتكريم .. ولكن الشابى لم يلبث - لعدة عوامل سنذكرها فيما بعد - أن تحول بعد نضج شاعريته وتجربته إلى شاعر واضح الرؤى ، ينظر نحو النماذج الإنسانية ذات الأطر الكلية فهو

يغنى للحب والجمال والحرية ، هابطًا إلى أودية عميقة ، عارجا إلى آفاق سامقة كلها سحر وفتنة ، وروعة وعظمة ، فسما بشعره وفنه إلى رحابة الأفق الإنسانى الأعلى ، وتعاطف مع كل مفردات الكون الكبير من نبات وزهور ، وأنهار وأودية وجبال وينابيع وأشجار وطيور ... وأفراح وأحزان وأشجان ، وعافية ومرض ، وحياة وموت وخلود ، وإقبال على الحياة وإدبار عنها ... وبهذا دخل الشابى إلى مجموعة البحار الأخرى - بعد أن خرج من بحر الذات - دخل إلى بحار الإنسانية ذات الروافد المتعددة الثرية ، مؤكدًا ذوبان الهموم الذاتية فى بوتقة الهموم الكلية .. وبذلك يكون قد انتقل من الخاص إلى العام . ومن المحدود إلى المطلق ، ومن الفردية إلى الجماعية ... وعبر من التوحد إلى التعدد .. وخرج من الأفق الضيق إلى الآفاق الممتدة المترامية .

(٢)

على أنى أرى أن دراسة النزعة الإنسانية كمحور من محاور شعر الشابى لم يلق من العناية والاهتمام ما لقيته المحاور الأخرى كالإحساس الحاد بالألم ، والاندماج الكلى فى الطبيعة .. وشعر الثورة والتحريض عليها ، وشكوى الزمان ، والأنين المتواصل من ضربات الدهر وطعنات الظروف !

وفى الوقت نفسه فلا يمكن أن أنكر أن هناك دراسات متناثرة ، وتناولات سريعة لا تشكل الملمح البارز لاستقلال هذا الجانب بالصورة التى يجب أن يكون عليها «١» ومن ثم فإن هذه الدراسة القصيرة تطمح أن تضاف إلى رصيد الدراسات التى كتبت عن الشاعر العظيم

(١) من أبرز الدراسات التى تناولت هذا الجانب أطروحة الدكتور عبد الغنى إبراهيم عبد الغنى للدكتوراه ، والتى محضها - فى عمق - للموازنة بين «فلسفة الحياة لدى أبى القاسم الشابى وإيليا أبى ماضى» ولكنه لم يتوسع فى عرض النزعة الإنسانية لدى الشابى ، وحسبه أنه ارتاد الطريق (تنظر ص ٤٨٣ ومابعدها) من الدراسة المودعه مكتبة كلية اللغة العربية بالمنصورة) .

(٣)

وحينما أصف الشابى بالعظمة فأنا أعنى هذا الوصف وأؤكده ذلك أن أبا القاسم فتح فى الشعر العربى أبوابًا ونوافذ ، وفجر طاقات جديدة تحتاج إلى كثير من الدراسات المتعمقة التى تعنى بجانب الصدق النفسى والشعورى والتبصيرى فى شعره .. وتسلله مصطحبًا همومه الذاتية إلى داخل النفسى البشرية محاولا اكتناه أسرارها ، وفض مغاليقها ، والتجول عبر أخاديدها والسهول .

وليس من قبيل المبالغة أن هذا الصدق النفسى (شعورًا وأداء) لم يسلم لغيره من معاصريه بالقدر الذى سلم له .

(٤)

ولقد حاولت الدخول إلى عالمه النفسى المضطرب كالبحر الهائج أحيانًا ، والهادىء كالجدول الرقراق أحيانًا أخرى ، لأبحث عن المنزع الإنسانى المتوقع خلف ثورته العنيفة الشريفة ، وذلك من خلال المصادر التى رفدت هذا الجانب من شعره ، وتركته ينساب فى تلقائية آسره ليعيد إلى الوجدان العربى بعض صفائه ونقائه ، كما حاولت إبراز ذلك من خلال رؤية تطبيقية تمثلت فى الظواهر التى كانت مرآة صادقة لبروز وتأكيد هذا الملمح .

(٥)

وإن كنت أعرف - منذ البداية - أنى لم أستوعب - فى دراسة قصيرة وعاجلة - كل المصادر ، وكل الظواهر ؛ فالحقل الشعرى لأبى القاسم رحب عريض يحتاج إلى دراسات مستقلة لظواهر الحزن ، والجمال ، والحب ، والغضب العارم ، والذوبان الجارف فى مفردات الكون .. ومازال فى منجم الشابى الكثير .

(٦)

ولقد حاولت بهذه الدراسة الوقوف فى وجه الذين قالوا بانكفاء الشابى على ذاته ، واهتمامه بهمومه الشخصية ، وهروبه المتعمد إلى الغاب (رمز العزلة والانفراد والتقوقع) من حمل مسؤلياته الوطنية والإنسانية .

والحق الذى لاريب فيه أنهم جهلوا الشابى وعالمه الثرى العريض .. ولو أنهم أمعنوا الفكر ، وكدوا الذهن فى قراءة ديوانه - مع أنه سهل قريب الموارد والمآخذ - لتغيرت نظرتهم إلى النقيض تماماً ، وذلك خير لهم وأبقى ، كما أنه بمثابة الإنصاف الضرورى لذلك الشاعر العظيم .

الانطلاقة من الفردية الذاتية إلى الكلية الإنسانية :

كان أبو القاسم الشابى يبحث عن ذاته منذ بدأ ينظم الشعر .. وهو فى هذا المنحى لم يك بدعاً بين شعراء جيله ، وإنما كان أحدهم «فقد كان لالتقاء الثقافتين العربية والغربية ، واصطدام الحضارتين : العربية الإسلامية والأوربية الحديثة هزة عميقة أصابت الوجدان العربى «١» » وفى يقينى أنه وجدها بين ركام الهموم الفردية ، والهموم الجماعية ؛ فوطنه محتل وشعبه سادر فى ضلاله القديم لايستجيب لصرخاته ، ولا يسمع لنداءاته مما أصابه بالإحباط ، ومع ذلك فقد انطلق من موقع الشعور بالإحباط الداخلى إلى رحابة الأحلام الوجدانية ليعبر عن غربته وتفرده كما عبر جبران خليل جبران من قبله حينما صرخ : «أنا غريب فى هذا العالم ، أنا غريب وفى الغربة وحدة قاسية ، ووحشة موجعة ، غير أنها تجعلنى أفكر أبداً بوطن سحرى لا أعرفه .. وتملأ

---

(١) بتصرف يسير من تمهيد الدكتور عبد القادر القط لكتابه «الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر» ص٣٠ .

أحلامى بأشباح أرض قصية ما رأتها عينى ... أنا غريب عن أهلى وخلانى .. وأنا غريب عن ذاتى وعن جسدى ، وأنا غريب عن هذا العالم ... أنا شاعر أنظم ما تنثره الحياة ، وأنثر ماتنظمه .. ولهذا أنا غريب عن هذا العالم ، وسأبقى غريباً حتى تخطفنى المنايا وتحملنى إلى وطنى .. » «١» .. ومع أن الشابى- رحمه الله -كان يجل أستاذه وصديقه جبران مما جعله يتأثر بنظرته القاتمة إلا أنه لم يستسلم له الاستسلام الكلى أو النهائى ؛ فهو يمزج بين عواطفه الذاتية ومشاعره الوطنية فى إطار من التعميم الكلى : ففى قصيدته «النبى المجهول» «٢» يتمنى لو كان له قوة السيول والشتاء والعواصف ليقضى على كل مايشيع القبح والهوان فى الحياة ، وينفث غضبه على شعبه الذى «يكره النور» ثم يتجه يائساً إلى «الغاب» ليدفن يأسه وبؤسه » «٣» .

والقارىء لهذه القصيده يدرك أن السهم الذاتى الخاص قد أخذ منحنى مغايراً من خلال رؤية كلية شاملة .

أيها الشعب ليتنى كنت حطاباً ... فأهوى على الجذوع بفأسى !
ليتنى كنت كالسيول إذا سالت ... تهد القبور رمساً برمس !
ليتنى كنت كالرياح فأطوى ... كل ما يخنق الزهور بنحسى !
ليتنى كنت كالشتاء أغشى ... كل ما أذبل الخريف بقرسى !
ليت لى قوة العواصف ياشعبى ... فألقى إليك ثورة نفسى !
ليت لى قوة الأعاصير ! لكن ... أنت حى يقضى الحياة برمس !
أنت روح غبية ، تكره النور ... وتقضى الدهور فى ليل ملس !

---

(١) نقلا عن المصدر السابق ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .
(٢) «أغانى الحياة» ص ١٤٩ طبعة الدار التونسية .
(٣) الاتجاه الوجدانى ص ٢٥٣ .

إلى أن يقـــــول :

إننى ذاهب إلى الغاب ياشعبى لأقضى الحياة ، وحدى بيأس
إننى ذاهب إلى الغاب على فى صميم الغابات أدفن بؤسى(١)

وهكذا يمضى الشاعر بهمومه إلى ساحة الكون الكبير لينثر همومه وهموم وطنه بين غابات صورتها رؤاه .

كذلك فإن انطلاق الشابى نحو الأفق الإنسانى الرحب يجعلنا نقف عند المعانى الكلية التى تنبثق من شعره معبرة عن الكون والحياة ، وكأنها - فى شمولها - تخاطب الضمير البشرى داخل وجدانات الناس فى كل مكان

والقارىء العجلان لديوانه يحسب - أول وهلة - أن شعره مجرد تعبير عن الألم الفردى ، والأهواء النفسية ، حتى أوشك أن يعد ضمن الداخلين فى دائرة الوجودية العدمية التى لاتفاعل فيها ولا إحساس بالحركة الكلية للكون والحياة .. والحق غير ذلك ؛ فالشاعر الذى لا يلين ولا ينكسر لا يمكن أن يدخل فى دوائر الوجودية العدمية ، والذاتية السلبية البغيضة .

والحق الذى لاريب فيه أن الشابى شاعر متميز ؛ يملك الأداة التى كانت تهىء له الانطلاق من الوجدان الذاتى إلى الوجدان الجماعى ، فالقارىء الفاحص يدرك عن يقين مدى تغلغل الهموم البشرية فى أعماقه ووجدانه وشعره حتى ليشعر كل من طالته الأوجاع ، وكل من وخزته الهموم ، وكل من شفت رؤيته تجاه الزمن ، وأفاعيل الحياة ، أن هذا الشعر كأنما كتب له وحده وأنه جاء ليعبر عن موقفه تجاه الحياة بكل مافيها من الأوجاع والهموم والآلام ، وشفافية الرؤية .. وهل الشعر إلا ذاك ؟ !

الشعر - كما هو معروف - تعبير شفاف عن مكنونات النفس ، وعن أفكار الروح وعن متاهات الدنيا ومنحنياتها وزواياها ، وسعادتها وأحزانها .

---

(١) أغانى الحياة ص ١٤٩ ومابعدها .

وشعر الشابى - دون مبالغة أو تحيز - جذوة متوهجة للنور والإشراق ؛ فهو شعر الإحساس المرهف ، والخيال الناضر : وهما شعبتان من شعب الشعور الإنسانى ، ومن ثم فهو يرى النور بقلبه ، ويحس الإشراق بروحه .

النور فى قلبى وبين جوانحى فعلام أخشى السير فى الظلماء ؟

معنى يختلط بالشعور المصفى لايكاد يتوقف عنده غير شاعر حساس بإنسانية الإنسان على الرغم من ظاهرية التعبير بالفردية !

- ٢ -

ويمضى الشابى على هذا الدرب الذاتى الذى ينخرط فى خطاب المجاميع الإنسانية

وأسير فى دنيا المشاعر حالمًا غردًا .. - وتلك سعادة الشعراء -
لايطفىء اللهب المؤجج فى دمى موج الأسى ، وعواصف الأرزاء
ويعيش جبارًا يحدق دائمًا بالفجر .. بالفجر الجميل النائى «١»

فهذه الشعلة من العذاب المتأجج فى شعر الشابى ، والمتمثل فى الشعور بالغربة والوحدة ، لاتقتصر على تصوير آلام الشابى وحده ، وإنما تنطلق من أتونه الشعرى الملتهب لتشمل الإنسان المعذب فى كل زمان ومكان .

شردت عن وطنى السماوى الذى ماكان يومًا واجمًا مغمومًا
شردت عن وطنى الجميل أنا الشقى فعشت مشطور الفؤاد يتيمًا
فى غربة روحية ملعونة .. أشواقها تقضى عطاشا هيما «٢»

---

(١) من قصيدة « نشيد الجبار » ص ٢٥٦ أغانى الحياة - الدار التونسية .
(٢) المصدر السابق ص ١٢٠ قصيدة «صوت تائه» .

(٣)

كذلك ففى قصيدة «الجنة الضائعة» يتحدث الشابى عن أيام الطفولة العذبة مقارنا بين ماكان وماهو كائن ، فيشدنا إلى الصور الجميلة حتى ليشعر كل منا أن القصيدة تصور طفولته هو ، وليست طفولة الشاعر وحده .. وهذا آية الشعور الإنسانى الصادق .

قد كنت فى زمن الطفولة والسذاجة والطهور
أحيا كما تحيا البلابل والجداول ، والزهور
لا تحفل الدنيا تدور بأهلها أو لا تدور
واليوم أحيا مرهق الأعصاب مشبوب الشعور
متأجج الإحساس أحفل بالعظيم وبالحقير
تمشى على قلبى الحياة ، ويزحف الكون الكبير «١»

ومن منا لايأخذه الحنين إلى متع الطفولة بعفويتها ، وبراءتها ، وطهارتها ، وسعادتها ، وبكل ماتحمل من جمال ، وروعة ؟

إن الطفولة حقبة شعرية بشعورها
ودموعها ، وسرورها ، وطموحها ، وغرورها
لم تمش فى دنيا الكآبة والتعاسة والعذاب
فترى على أضوائها مافى الحقيقة من كذاب «٢»

تجاوز الشابى إذن عبر معانيه السامية التى تثير أسمى الملكات الإنسانية فى البشر - حالة الفردية الضيقة إلى حالة الإنسانية السامية ، وأناب همومه وتصوراته الشخصية فى الهم الجماعى الكبير .. وذلك مالم يسلم إلا لقلة نادرة من الشعراء والأدباء .

---

(١) المصدر السابق ص ٢١٧ قصيدة «الجنة الضائعة» .
(٢) المصدر نفسه ص ٩١ قصيدة «الطفولة» .

الإنسانيـــــة : سمـــات وملامـــح

مع أن أبا القاسم الشابى لم يخضع شعره لمذهب من مذاهب أو لدعوة من الدعوات . فقد انبثق شعره من داخله دون أن يحتاج إلى أطر أو قوالب يصب فيها رؤاه ، أو يحصر فى حيزها توجهاته ، إلا أننا سنحاول الإلمام بسمات الشعر الإنسانى من خلال رؤيتنا لهذه النزعة فى الأدب العربى المعاصر حينما تبناها المجددون للدخول بشعرهم إلى دوائر أوسع وأشمل وأبعد غورا ؛ هادفين من وراء ذلك إلى مخاطبة الإنسان فى كل مكان «١» .

ومن خلال رحلة قصيرة داخل المعاجم العربية العامة ، والمعاجم الاصطلاحية الخاصة خرجنا بمجموعة من السمات والملامح القائمة ، والتى مازالت فى حاجة إلى تحديد دقيق .

ففى «المصباح المنير» «٢» تحديد لمادة «إنسان» دون إشارة إلى المصدر الصناعى .. «الإنسانية» .

أما «المعجم الوسيط» فقد نص على كلمة «الإنسانية» وجعلها خلاف «البهيمية» وجملة الصفات التى تميز الإنسان ، أو جملة أفراد النوع البشرى التى تصدق عليها هذه الصفات «٣» .

---

(١) مع أن الإنسانية تعد مذهبا من مذاهب الأدب وردت إلينا فى جملة ماورد من الثقافة الغربية ، فإن أدبنا العربى القديم والوسيط لم يخل من ملامحها وسماتها بدون تحديد المصطلح وهى أقرب ماتكون إلى «المثالية» كذلك فإن الإنسانية لم تحدد فى الأدب المعاصر بتعريف جامع مانع ومازالت تسرى فى مجاميع الأدب العالمى منذ أفلاطون حتى اليوم دون تحديد دقيق . وينظر فى ذلك كتاب «المذاهب الأدبية ، من الكلاسيكية إلى العبثية» د. نبيل راغب .

(٢) الجزء الأول ص ٣٥ مادة «أنس» .

(٣) الجزء الأول - الطبقة الأولى ص ٣٠ - ويلاحظ أن «الإنسانية» من الألفاظ التى أقرها مجمع اللغة العربية .

وقد رأى (جبور عبد النور) فى «المعجم الأدبى» أن الإنسانية تعنى مجموع الطبائع المشتركة بين الناس ، كما تعنى طبائع تجعل الإنسان متميزاً عن الحيوان .. ويعتبر درس الأدب ، أو الاشتغال بالفنون مغذياً لهذه الطبائع ومنمياً لها »«١» .

وفى «معجم مصطلحات الأدب» يأخذ «مجدى وهبة» ما كتبه مشتركاً مع «كامل المهندس» فى معجم «المصطلحات العربية فى اللغة العربية والأدب» من أن النزعة الإنسانية تعنى الميل إلى حب الإنسانية ، واعتبار الخير العام للإنسان هو الهدف الأسمى »«٢» .

ومن خلال هذه الرحلة يتضح أن النزعة الإنسانية تدور عند الإنسانين حول إجلال الإنسان واتخاذه محوراً ومداراً «فلا فكر ولا فن ، ولا علم ولا حكم ، ولا صناعة إلا إذا كان خير الإنسان وارتقاؤه ، وحريته وطلاقته هدفاً ومقصداً ، فبفضل الإنسان الحر المفكر ، كان لهذه الكرة الصغيرة مكانتها العليا بين سائر العوالم الكثيرة العظيمة التى ترى ولا ترى «٣» .

ومع أن الدكتور شوقى ضيف يتبنى وجهة النظر القائلة : إن الإنسانية غير محددة الدلالة ، ولا محصورة الفكرة .. فقد أضاف إليها رؤيته التى تقول : «إن الإنسانية قد تدل على مايقترن فى أذهاننا من السمو بالحياة البشرية ، وأن تجتاز كل العقبات التى تقف فى طريقها بحيث تعم العالم وحدة إنسانية لا تكيفها حواجز من وطن أو جنس ، ولا

---

(١) وهى تعنى أيضاً «طيبة خلقية معبر عنها بمختلف أساليب القول والعمل والمواقف من الآخرين - انظر المعجم الأدبى ص ٢٧ ببيروت . دار العلم للملايين .

(٢) ينظر ص٢٢٥ من معجم مصطلحات الأدب لمجدى وهبة - ومعجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب «لمجدى وهبة وكامل المهندس ص ٤٠٥ - الطبعة الثالثة

(٣) مع الشعراء د. زكى نجيب محمود ص٦٩ .

تحدها عقبات من دين أو غير دين .. وبذلك تصبح الإنسانية نزعة عالمية يريد أصحابها أن تعم العالم كله روابط واحدة ، فلا أبيض ولا أسود ولا شرقى ولا غربى ، ولا مسلم ولا مسيحى ؛ فالعالم يهدف إلى الاتحاد ؛ .. كان أسرة ، ثم كان قبيلة ، ثم أصبح أمة ، ولابد أن تتلاصق وحدته فتذوب كل عنصريته ، وتذوب كل عصبيته ، ويصبح الناس إخوة فى نطاق واسع من الإنسانية لاتحده غير السماء والأرض »«١» .

وأرى أن الدكتور شوقى ضيف - مع أستاذيته التى لا تنكر - لم يفصح عن سمات وملامح النزعة الإنسانية فى الأدب ، وإنما اكتفى بشرح مدلول اللفظ من حيث هو لا من حيث انعكاسه على رؤية الشاعر أو الأديب .

. وأرى أن الإنسانية فى مجال الأدب بعامة ، وفى مجال الشعر بخاصة تقع فى منطقة الأحاسيس الرهيفة والفهم الخاص للطبيعة ، والانضواء تحت لواء الحب الدائم للناس والأشياء والغوص وراء النفوس البشرية ، والبحث عن براءتها وقيمتها النبيلة «٢» وبذلك تعتبر الإنسانية هى المقابل أو المعادل الموضوعى للصفات الرديئة والسلبية داخل النفس الإنسانية كالأنانية والكراهية وما إلى ذلك من المناطق المظلمة التى يأنف منها الإنسان السوى .

كذلك فالإنسانية تشمل عفوية الإنسان وتلقائيته «فطرة الله التى فطر الناس عليها» وهى تنتقل من مضامينه إلى تعابيره من قبيل الدمج الكلى بين الشكل والمضمون فلا تصور لوجود أحدهما بدون الآخر .

---

(١) دراسات فى الشعر العربى المعاصر ص ٣٥ .

(٢) وذلك بفضل تقارب المساحات والمسافات الجغرافية الشاسعة فى العالم حتى صار كالقرية الواحدة نتيجة ثورة المواصلات والاتصالات ، والاتساع العالمى لانتشار الأدب وتنقله،فإن الإحساس الشامل بجوهر الإنسانية أضحى أمراً ضرورياً .

وعلى ذلك يكون الشاعر أو الأديب الميال إلى تبنى النزعة الإنسانية مندفعاً نحو وصف الحالات الشعورية وثيقة الصلة بالكليات كالطفولة والبراءة ، والحب والجمال والموت والظلم والنبل ، والطبيعة ذات البراءة والنقاء الفطرى ، وقد يربط ذلك كله بالواقع الأليم الذى يحياه ، كما أنه يربطه بالواقع المبهج الذى يعيشه ..

والشعر الإنسانى يتسم بحرارة العاطفة ، وأشواق الروح ، وتهويمات الخيال ، وكذلك النثر الفنى المتصل بالوجدانيات .

كما أن الأدب الإنسانى - بصورة عامة - يتمرد على الأغراض التقليدية أو اتخاذ الشعر وسيلة للتربح والكسب ، ويبتعد الشاعر بشعره الإنسانى عن كل مايتنافى مع رسالة الشاعر وروحانية الشعر «١» .

والأدب الإنسانى يستغرق الحياة والوجود ويرتفع إلى تبنى المبادئ السامية ، والمثل العليا داعياً إلى الحب الشامل لكل ما فى الكون فهو يحنو على النبته ، ويتعاطف مع الحيوان والطير والحشرا ت الضعيفة وينقم على الفوارق التى يصنعها الإنسان .

والشاعر الإنسانى لايحمل بين جنبيه آلام الأمة التى ينتمى إليها فحسب وإنما يحمل هموم الإنسانية كلها .

وفى إيجاز نرى أن الإنسانيين العظام يضيئون بنتاجهم وبروحهم العامرة وجه الحياة ، ويؤدون بذلك رسالة من أجل الرسالات حتى ولو بدت رنة الأسى والشجن فى تعابيرهم ، وفى الأشكال التى اختاروها لبث لواعجهم .

---

(١) ص ٤٨٣ من فلسفة الحياة بين أبى القاسم الشابى وإليا أبى ماضى .

والإنسانية فى شعر أبى القاسم الشابى لم تفرض بقرار ، ولم يتعرض لما يصرفه عنها ؛ وإنما هى فى وجدانه منذ بدايات شعره ، وإن كانت الظروف التى تعرض لها خفزته على ارتياد هذا الطريق ، ومتابعة هذا اللون .. والشابى يتميز بما أشرنا إليه من حرارة العاطفة ، وإشراق الروح وتهويمات الخيال ، مضافًا إليها رنة الأسى والشجن والإحساس الحاد بالغربة والألم .

ومما يميز شعر الشابى من حيث المنزع الإنسانى صدقه فى تصوير مفردات الكون والطبيعة من خلال ذوب وجدانه ، واختيار صوره ، واصطباغ شعره بإحساس رهيف .. نقرأ له قصيدة «إلى طغاة العالم» فنراه ينقم على كل الجبابرة الذين يهينون شعوبهم ويستذلونهم فيشوهون جمال الوجود :

ألا أيها الظالم المستبد حبيب الظلام ، عدو الحياة
سخرت بأنات شعب ضعيف وكفك مخضوبة من دماه
وسرت تشوه سحر الوجود وتبذر شوك الأسى فى رباه

إلى أن يقول منذرًا طغاة العالم أجمعين بمصيرهم الفاجع حينما يجرفهم السيل وتهلكهم العواصف المشتعلة :

تأمل هنالك ... أنى حصدت رءوس الورى وزهور الأمل
ورويت بالدم قلب التراب وأشربته الدمع حتى ثمل
سيجرفك السيل ، سيل الدماء ويأكلك العاصف المشتعل[1]

كذلك فالشابى يتألم ويذم الحرب التى وقودها الناس والمستقبل فهو لها كاره وعليها ثائر ... ويكفى أن الناس بسببها يتحولون إلى وحوش كاسرة لا تعرف معنى الرحمة والإنسانية .

---

(١) ص٢٦٤،٢٦٥ «من أغانى الحياة» الدراسة التونسية .

فما الحرب سوى وحشية نهضت ... فى أنفس الناس فانقادت لها الدول
وأيقظت فى قلوب الناس عاصفة ... غام الوجود لها ، واربدت السبل
فالدهر منتقل بالنار ملتحف ... بالهول والويل ، والأيام تشتعل
والأرض دامية بالإثم طامية ... وماردالشر فى أرجائها ثمل
والموت كالمارد الجبار منتصب ... فى الأرض يخطف من قد خانه الأجل
وفى المهامه أشلاء ممزقة ... تتلو على القفر شعراً ليس منتحل(١)

وهكذا يمضى أبو القاسم على هذا الدرب الإنسانى مقدماً مثل هذه النماذج التى نستوفى جانباً كبيراً منها خلال المصادر والظواهر .

المصادر وعوامل التكوين

مع أن الإنسانية نبت إلهى ينبت داخل النفوس البشرية ، إلا أنها تحتاج إلى روافد ومكونات ، كما تحتاج إلى كشف وتنمية ... والإنسانية من حيث مفهومها تختلف - كما سبق - من إنسان لآخر ، ومن مجتمع إلى مجتمع .. ومن بيئة إلى بيئة .. وكذلك من شاعر إلى شاعر ومن أديب لآخر .

وقد تنوعت المصادر والمناهل التى أثرت فى تكوين النزعة الإنسانية والكشف عنها وتنميتها لدى أبى القاسم الشابى حينما امتص الرحيق الحلو ، وتحول فى داخله بعد أن تمثله إلى شراب سائغ ينعم به الشاربون .

وقد تعاونت هذه المصادر فى حفر أخاديد إنسانية عميقة داخل وجدان الشاعر الذى كان ربيبالظروف كثيرة تدخلت فى صياغة شخصيته ثم انعكست على نظرته إلى الكون والحياة ، إبتداء من النشأة والجذور إلى الحيرة والقلق والذوبان فى زوايا ومنحنيات الطبيعة ومروراً بالمحن والآلام

---

(١) ص ٤٢، ٤٣ المصدر السابق .

والهروب من مواجهة الواقع ، والخروج من قوقعة الذات إلى هموم الوطن العربي الكبير .. وسنلم بتفاصيل ذلك مع شيء من الإيجاز استجابة لطبيعة هذه الدراسة المحددة .

١ - النشأة والجذور والإنعكاسات

أحداث التكوين الحياتي ، ومؤثرات البناء الثقافي ، وانعكاسات البيئة ، وواقع العصر ، وظروفه السياسية والاجتماعية والتعليمية ، كل ذلك يتدخل - شئنا أم أبينا - في صياغة شخصية الشاعر أو الكاتب أو الفنان ، فيترك على إنتاجه سمات البيئة ، وبصمات الأحداث التي مر بها ومرت به .

(١)

في مطلع هذا القرن ، وفي غضون سنة ١٩٠٩ م «١» بالتحديد ولد أبو القاسم الشابي ببلدة «الشابية» إحدى قرى الجنوب التونسي «٢» لأسرة صغيرة يسودها الهدوء النفسي ، والاطمئنان الأسري نتيجة تدين الأب واعتداله ، كما يسودها الاستقرار نتيجة حنو الوالد على أبنائه ويتعايش الصفاء ، والتذوق الجمالي مع أفراد الأسرة الصغيرة لكثرة التنقل بين الربوع

---

(١) ذكر بعض مترجمي حياة أبي القاسم الشابي - ومنهم الدكتور زكي نجيب محمود في كتابه «مع الشعراء» أن أبا القاسم ولد سنة ١٩٠٦ م ولكن الاتفاق قائم على أن مولده كان ١٩٠٩ م .

(٢) لم يفصح محمد الأمين الشابي عن مكان مسقط رأس شقيقه أبي القاسم . أما زين العابدين السنوسي ، وشايعه على ذلك عمر فروخ ، ومحمد إبراهيم أبو سنة ، ورجاء النقاش فقد حددوا «توزر» مسقطاً لرأسه ، ولكن إجماع معظم المؤرخين لحياة الشابي اتفقوا على أن (الشابية) بلد الآباء والأجداد هي موطن ميلاده حتى إن «رجاء النقاش» عاد عما أثبته في مقاله بمجلة الرسالة (العدد ٩٠٧ السنة ١٨) وذكر أن الشابية هي مسقط رأسه في كتابه (الشابي شاعر الحب والثورة) كذلك خير الدين الزركلي في «الأعلام» ونعمات فؤاد في (شعب وشاعر) وعلى ذلك أغلب مؤرخيه من الكتاب المغاربة .

التونسية المتميزة باتساع رقعة المساحة الخضراء ، واختلاف المواقع ، وخصوبة التربة ، وجمال الطبيعة ... وفى هذا الجو الأسرى الهادىء وبين ربوع هذا الطبيعة الخلابة ، وفى رعاية الأب العطوف نشأ أبو القاسم ممتعًا فى الحلية ، ومحاطًا بالحب والحنان والرعاية من كل جانب .

(٢)

كان والده هو معمله الأول ، ومرشده الدائم ؛ .. فقد درس فى الأزهر سبع سنوات حتى حصل على إجازته العلمية ، ولما عاد من مصر قضى عامين فى جامع الزيتونة حتى حصل على «إجازة التطويع» وانتظم فى سلك القضاء متنقلا بين المدن والأقاليم التونسية منذ بدء عمله إلى أن لقى ربه سنة ١٩٢٩ م .

وأتم أبو القاسم حفظ القرآن الكريم وهو دون التاسعة ، وقرأ على أبيه بعض الكتب العربية ، وتدثر بحفظ المتون متأثرًا بشخصية والده ذلك الأزهرى الطموح فأخذ عنه الخلق القويم ، والحرص على تقديس الحق والعدل ، والاهتمام بغرس الفضائل ، والشيم النبيلة والتدين الصحيح .

(٣)

فى سن الثانية عشر سافر أبو القاسم إلى تونس العاصمة سنة ١٩٢٠ م ليلتحق بجامع (جامعة) الزيتونة «١» . وهناك يمر بتجارب كثيرة ومن معينها التراث المحافظ ينهل كل قيم التراث ومثله - إلى جانب حفظه لأشعار القدماء والتوغل فى حدائقهم ، وانخراطه فى نشاطات ثقافية متعددة كانت تموج بها العاصمة يومئذ ؛ فقد اشترك فى «جمعية قدماء الصادقية» كما سنبين فيما بعد .

---

(١) شبيهة الأزهر فى مصر والقرويين فى المغرب .

(٤)

وفى سنة ١٩٢٧ يتخرج الشابى فى جامعة الزيتونة بعد حصوله على إجازتها العلمية ، ثم لم يلبث أن التحق بكلية الحقوق التونسية ليتخرج فيها عام ١٩٣٠ م .. وهو فى خلال ذلك يتصل بالحركة الأدبية فى تونس ومصر وبلاد الشام والمهجر الأمريكى ، وقد تأثر فى شعره بالتيار الرومانسى الذى بدأ يسيطر إلى حد بعيد على الثقافة العربية ليحدث تجديداً ، ويحرك سواكن الجو الأدبى ، وانطلقت بدايات التجديد من مصر .

(٥)

اتصل الشابى بجماعة «أبولو» التى أسسها الدكتور أحمد زكى أبو شادى بالقاهرة ، وكانت مجلة «أبولو» الشعرية هى التى قدمته إلى العالم العربى فى المشرق بعد أن بدأ ينشر شعره بها .. وحينذاك احتل جانباً كبيراً من اهتمام النقاد والدارسين ، والأدباء والقراء فى مصر .. وقد تبنى التجديد شكلا ومضموناً - فى إطار القصيدة العربية ، وأنتج من الشعر لونا جديداً فاستلفت الأذهان والأنظار .. ودعا إلى الحرية هادفاً إلى تحرير وطنه المحتل ومستيقظاً شعوب العالم العربى ، وانغمس فى دعوته الصادقة بروح ثائرة لا تعرف المهادنة ؛ فبلاده محتلة من قبل الفرنسين ، كما أن بلدان العالم العربى غارقة فى بحر لجى من الغفلة والاحتلال ، فصور الوحشية والطغيان ، ومعانى الاغتصاب مخيفة ، لكن شعبه فى سبات عميق لايكاد يستجيب لصرخاته المجلجلة ، بل ويأبى أن يفتح لأشعاره الثورية الطريق كى تؤتى أكلها !!

(٦)

ويمرض والده - المرض الأخير - ويسهر أبو القاسم على تتطبيبه والعناية به ، ويرافقه عائداً إلى قريته ليلفظ أنفاسه الأخيرة بين يديه .. ويكون لذلك من التأثير مايحول حياة الشابى إلى صورة أخرى تختلف تماماً عما كانت عليه ، فأعباء الأسرة التى تنامت بمرور الزمن فصارت

كبيرة تقع على عاتقة وحده ، مضافاً إلى ذلك أنه تزوج وأنجب ، وقال بعض مؤرخيه ومنهم الدكتور أبو شادى : إنه كان منكوباً فى زواجه مثلما كان منكوباً فى حياته فقد اغتال الموت حبه الوحيد قبل رحيل أبيه .. ماتت ملهمته وهى بعد فى براءة الطفولة ، وجمال الصبا ، وتفتح الشاب فذوى الربيع ، واختنقت الزهور فى رؤية الشاعر الرومانسى الحالم .

(٧)

وفى سنة ١٩٣١ م أصيب الشابى - ذلك الشاعر النحيل الضعيف الحساس بمرض تضخم القلب فعانى معاناة قاسية إذ خنق المرض آماله ، ووقف فى طريق طموحه وتفتحه لاستقبال بشائر الحياة ، وأضاف إلى أعبائه الجسام عبئا ثقيلا .

وكانت نتيجة هذه المحن القواصم : (موت الأب ، ورحيل الحب ، واشتداد العلة ، واحتلال الوطن ... وإعراض الشعب ... وتحطم المثل ، وانهيار الطموح على صخرة الواقع) أن أحاطت الأحزان بنفسه وبكل ماحوله .. وكان لذلك تأثيره وانعكاساته على شاعرنا وشعره فهرب من مواجهة الواقع القاسى ... واستعصم بالبراءة والطفولة فى أحضان الطبيعة ، وهرب إلى الغاب (رمز العزلة والانفراد والبحث عن عالم مثالى جديد) ولكن هيهات ؛ فالواقع هو الواقع .. سريع الخطا ، ساحق للآمال ، مخيب للطموح .. والموت يترصد بالمريض الذاهل .

(٨)

مات أبو القاسم فى عمر الورود والزهور (سنة ١٩٣٤) دون أن يكمل ربع قرن ، ودون أن يرى ديوانه مطبوعاً ، وكان قد أعده لدفعه إلى صديقه أحمد زكى أبى شادى ليطبع فى مصر «١» .. ولكن عاجلته المنية فطبع الديوان بعد أحدى عشرة سنة من موته .

---

(١) طبع الديوان فى مصر لأول مرة عام ١٩٥٥ بالعنوان الذى اختاره الشابى قبل موته (أغانى الحياة) وقد أعده للطبع شقيقه محمد الأمين الشابى =

الانعكاسات

جرَّت هذه الأحداث المتتابعة ذلك الشاعر الفريد إلى المنحى الصعب حينما فرضت عليه التعايش مع محنه القواصم ،وألامه الكبرى مهما حاول الهروب ، فلم يجد أمامه مفرًا من تذويب همومه الذاتية فى خضم الهموم الإنسانية .. وانعكس ذلك على شعره متحولا من قوقعة الذات - شأن معظم الرومانسيين - إلى إنطلاقه عالم المثل العليا والانضمام إلى قافلة الإنسانين العظام بكل ماتحمل الإنسانية من اتساع أفق .. ورحابة منطلق ، وكأنه يحاول استجلاب شىء من التعويض النفسى بعد أن فقد تقدير قومه لشعره وشاعريته ، وعدم إجلالهم لتحريضه ودعوته ، ونكوص الأيام والليالى عن الاستجابة لما كان يأمله ويتخيله ، ويتطلع إليه .. وذلك كله يعنى أثر النشأة وظروف البيئة ... ويعبر الشابى عن هذا الضيق الذى اعترى حياته ، والبؤس النفسى الذى ألم به ، فهو وحده يائس قانط بينما كل ماحوله جميل رائع ، زاه طروب .

ما للرياح تهب فى الدنيا ، ويدركها اللغوب
إلا رياحى فهى جامحة ، تمـردها عصيـب ..
ما للمياه نقية حولى ، وينبوعـى مشـوب ..
ما للصباح يعود للدنيا ، وصبحى لايـؤوب ..
مالى يضيق بى الوجود ، وكل ماحولى رحيـب
مالى وجمـت وكل مافى الغاب مغتـرد طـروب
مهما تضاحكت الحياة ، فإننى أبدًا كئيـب
أصغى لأوجاع الكـآبة ، والكآبه لاتجيـب
إنى أنا الروح الذى سيظل فى الدنيا غريب «١»

---

* وقدم له مؤرخًا لحياة الشاعر

(١) أغانى الحياة : قصيدة «نشيد الأسى» ص ١٢٣ .

ولا يلبث الشابى أن ينطلق فى عالم المثل المتخيل ملتمساً لدى هذا العالم الوهمى راحة نفس لم يجدها فى عالم الواقع الردىء ويعبر عن انطلاقته بعد يأسه ، وبهجته بعد حزنه ، وبسمته بعد عبوسه وقنوطه فى قصيدته «يابن أمى» وكأنه يمهد للدخول فى مرحلة جديدة من مراحل شعره :

خلقت طليقاً كطيف النسيم ... وحراً كنور الضحى فى سماه
تغرد كالطير أين اندفعت ... وتشدو بما شاء وحى الإله
وتمرح بين ورود الصباح ... وتنعم بالنور أنى تراه
وتمشى كما شئت بين المروج ... وتقطف ورد الربى فى رباه
كذا صاغك الله يابن الوجود ... والقتك فى الكون هذى الحياة
فمالك ترضى بذل القيود ... وتحنى لمن كبلوك الجباه؟
ألا انهض وسر فى سبيل الحياة ... فمن نام لم تنتظره الحياة !

وينهى قصيدته هاتفاً :

إلى النور فالنور عذب جميل ... إلى النور فالنور ظل الإله(١)

وهكذا يتعالى الشاعر على جراحه فى سبيل أمته ووطنه وروحه المحلقة فى عوالم مثالية كبيرة ورائعة .

٢- الثقافة وروافدها

للثقافة أثرها الفعال فى تشكيل رؤية الإنسان ، وتحديد مساره الفكرى ، وتفجير مواهبه الكامنة ، وتنظيم طاقاته الهادرة ومهما أوتى الأديب أو الشاعر أو الفنان بوجه عام من إلهامات ومواهب يظل فى حاجة إلى إطار ثقافى يتفاعل إيجابياً مع هذه الإلهامات والمواهب ، كى تتكامل الرؤية وتكون - دائماً - على بصيرة وقد كان الشابى - رحمه الله - ملهماً

---

(١) أغانى الحياة ص١٣٠، ١٣١

بكل مقاييس الإلهام ، موهوبًا بكل معايير الموهبة ، وقد أضاف إلى هذا العطاء الربانى ثقافة رفيعة حرص على أن تكون متكاملة - لولا قيد التخلف فى تعلم لغة أجنبية .. وقيد عدم سفره إلى بلاد المشرق العربى أو غيرها من بلاد العالم .. ويبدو أن عمره القصير لم يتح له ما أراده لنفسه فكيف بما نريده نحن له ؟!

كانت ثقافة الشابى مناحة فى عناصر متعددة ، منها التأثير التراثى والتأثير الحديث الوارد من مصر بالذات .. والتأثير التونسى ، ، والتأثير المهجرى ، وتأثير الأدب المترجم عن اللغات الأخرى .. وذلك يعنى أن الشابى خلقت له عيون عديدة أطل بها على محاور ثقافية مختلفة ، حينما نضيفها إلى الموهبة الضخمة التى حباه الله بها يبرز أمامنا فن الشابى وشعره ... ومنحاه الإنسانى وعدة محاور وضروب أخرى .

أ- الرافد التراثى

سبع سنوات قضاها الشابى فى جامعة الزيتونة بعد أن أتم حفظ القرآن الكريم وهو دون التاسعة ، وبعد أن حفظ ماشاء من متون وفنون ، وقرأ على يد والده بعض الكتب العربية .

وانطلق بخطًا موفقة يعززها ذكاء وقاد ، وميل طبيعى إلى القراءة والاطلاع حتى نال شهادة «التطويع» من الزيتونة سنة ١٩٢٧ م ثم التحق بكلية الحقوق التونسية - بناء على رغبة أبيه - ونال إجازتها سنة ١٩٣٠ م متفوقًا ، وأراد أن يتم دراسته العالية فعاقه مرض القلب المتضخم جبارًا عتيًا ، فعكف على علاج علته وانكفأ على ذاته حزينًا مهمومًا ، ساخرًا موجوعًا ليتعلم فى مدرسة الحياة وليعلق جراحه ، مواصلا القراءة والاطلاع يقرأ فى الأدب القديم باستيعاب وتفهم ونهم ، فقد أهلته دراسته شبه الأزهرية لذلك . ويعب من نبع التراث الصافى ، ويقف عنده طويلا ...

ليستخرج قيمه ومثله وذخائره ، ويختار من بين شعراء العربية القدامى من يحفظ شعره ، ويتشرب روحه ، ويقف على مواطن إبداعه ، كما يختار من يجعله موضع دراسته ونقده وبيان الرأى فيه .

رافد الأدب الحديث

ولايكتفى الشابى بالوقوف عند التراث وروائعه ، وإنما تمتد شهيته الذهنية إلى الأدب الحديث الذى كان يحفل بمتغيرات عديدة فى ذلك الحين ؛ فمدرسة الديوان تذيع فى الآفاق روحًا جديدة ، وأهل المهجر يؤازرون ويؤيدون ، ولايقف الشابى - بقريحته العبقرية - عند حد الانبهار والدهشة وإنما يأخذ من مصادر الأدب الحديث المترجمة ، ويتخير من مستجاده ، عاكفًا على قراءة كل مايرد إلى تونس من الأدب المصرى الجديد وفهمه ، متجهًا بروحه وتطلعه ووجدانه - نحو أدب المهجر بكل مايحمله من نبض إنسانى وعذاب وأنين ونجوى وشكوى ورومانسية دافئة آسرة ، ونماذج نفسية تتوغل فى الأعماق تارة ، وتقف عند السطح تارة أخرى .. وكان من نتائج قراءاته فى الأدب القديم ، والأدب الحديث كتابه أو محاضراته (الخيال الشعرى عند العرب) تلك التى ألقاها فى نادى جماعة قدماء الصادقية - وهى دراسة للأدب العربى فى جميع عصوره على ضوء النقد الحديث .

لم يتعلم الشابى لغة أجنبية ومع ذلك يعد من جملة المجددين فى الشعر العربى الحديث ، ساعده على ذلك قراءة المترجمات ، والذوق الصافى ، والعبقرية المتأججه . تأثر كما ألمحنا - بالأدب المصرى الجديد وبأدب المهجر «وبمدرسة جبران خليل جبران» بالذات ، ومع ذلك فقد كان «نسيج وحده ، منفردًا بمدرسته» «١» .

وهكذا تأثر أصحاب العقول والعبقرية ؛ يطلعون على ما عند

---

(١) الرسالة العدد ٩٠٧ المجلد ١٨ .

الآخرين ، ليعتصروا الرحيق ، ثم يحولون هذا الرحيق إلى نتاج جديد يحمل طابعهم وميسمهم .

الرافد الرومانسي

والشابي خريج الزيتونة والحقوق التونسية ، المتشرب منذ النشأة فصاحة وبلاغة «المعجز الأول» ، والمطلع على الأدب العربي القديم ، والقارئ لكل ماوقعت عليه عيناه من عيون الأدب الحديث هو نفسه الشابي الذي تدثر بالرومانسية حتى استغرقته استغراقاً كلياً .. ويبدو أن استعداده الشخصي بما حمله معه من مكونات حياته ، وظروفه القاسية قد دفعه إليها لينثر همومه ، وينشر أوجاعه ، ويفلسف .

وللرومانسية في الأدب العربي الحديث تأثير واضح لايمكن إنكاره وبالذات لدى المهجريين وجماعة أبولو - وكان الشابي أحد أعضاء هذه الجماعة التي أسسها في مصر الدكتور أحمد زكي أبو شادي«١» .

والقارئ لديوان الشابي أو لمجموعة أعماله الكاملة يدرك منذ الوهلة الأولى وقوعه في أسر الرومانسية بكل ماتحمله من حزن ولوعة وشجن ؛ فغلف شعره نزعة عاطفية طاغية تغمر إحساسه وشعوره بالناس والطبيعة والأشياء .

وإذا طبقنا مقياس الدكتور محمد مندور من أن هناك فرقاً بين العاطفة وما أسماه بـ «الطرطشة العاطفية» وكيف أن العاطفة صادقة باقية وأن «الطرطشة» تحمل مبالغة غير هادفة ؛ فالشابي عاطفي صادق ، وبعيد البعد كله عن الطرطشة العاطفية .. ومن ثم كانت عاطفة الشابي نقية صافية ، وليست رومانسية مفتعلة «والحق أن الشابي نغمة من أنقى وأصفى النغمات الرومانسية في الأدب العربي المعاصر ، ليس فيها كذب ولا

---

(١) أسست سنة ١٩٣٢م .

تزويد ولا تزويق ولا تنازل عن كرامة الحزن ، وعزة الأسى والشجن » «١»

والرومانسية تصلح وعاء للتعبير عن أغراض ومعانى أبى القاسم الشابى ؛ فهى مهد للحزن والتشاؤم والحنين إلى المثل ، والشكوى من الغربة النفسية ، والفرار من الواقع والانصراف إلى المجهول والحيرة والقلق، والامتزاج بالطبيعة ، واللجوء إليها هروبًا من الواقع المرير ، إلى جانب تقديس الحب ، والتأمل فى أشياء كثيرة من بينها الموت !!

ومع ذلك كله لم يكن شعر الشابى السابح فى بحار الرومانسية ، والعاطفية أدب ضعف أو استسلام بل كان أدب قوة وشموخ فهو يبحث عن مكان من العزيمة والإرادة فى الإنسان العربى ليحركها ويدفعها ، وهو يمجد إرادة الحياة ،وعلى التمرد لمواجهة المشكلات ، والصبر على مواجهة العقبات والصعاب ، ومن هذا المنطلق كان قوله الذائع الرائع :

ومن لايحب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر

ويقول:

أبارك فى الناس أهل الطموح ومن يستلذ ركوب الخطر

وقبل ذلك يقول من القصيدة نفسها :

ومن لم يعانقه شوق الحياة تبخر فى جوها واندثر«٢»

ومن مظاهر رومانسية الشابى ذات الشاعرية الفياضة بالجمال والإيقاع الموسيقى الحالم ، والخيال الواسع العريض قوله فى قصيدته «تحت الغصون» :

---

(١) ثلاثون عامًا مع الشعر والشعراء ص ٥٣٥ بتصرف . ويلاحظ أن النقاش نقل عن الدكتور مندور الفرق بين العاطفة والطرطشة العاطفية ينظر «الميزان الجديد» .

(٢) أغانى الحياة ص ٢٤٠ ط الدار التونسية .

أى دنيا مسحورة أى رؤيا طالعتنى فى ضوء هذى العيون
زمر من ملائك الملأ الأعلى يغنون فى حنو حنون
وصبايا رواقص يتراشقن بزهر التفاح والياسمين
فى فضاء مورد حالم ساه أطافت به عذارى الفنون
أى خمر مؤجج ، ولهيب مسكر ؟ أى نشوة وجنون ؟!
وردتها الحياة فى لهب السحر ونور الهوى ، وظل الشجون «١»

ولاغرابة أن تقود الثقافة الرومانسية التى استقاها الشابى من مصدرين أساسيين هما : الإطلاع على الأدب المصرى شعراً ونثراً إبان ازدهار «الرومانتيكية» فيه ، ثم الاطلاع المكثف على الأدب المهجرى ، وتبنيه لهذا المذهب الأدبى بكل ما كان يحمله من مظاهر .. لا غرابة أن تعود هذه الثقافة الرومانسية إلى النزعة الإنسانية التى انداحت فى شعر المهجر ، وفى شعر جماعة أبولو ، وشعر الممهدين لظهورها ، وامتداد ظلالها .

الرافد التونسى

للثقافة التونسية العريقة الممتده من لدن ابن خلدون ، والحصرى القيروانى صاحب «زهر الآداب» وابن رشيق صاحب «العمدة» وحازم القرطاجانى الناقد الجمالى ... أثرها فى رفد شاعرية شعراء تونس ، ومن بينهم الشابى .

كما كان لزيارة الشيخ محمد عبده لتونس ، وما حمله معه من أفكار جديدة أثرها فى تربية جيل جديد كون مايسمى بـ«جمعية قدماء الصادقية» التى نادت بالأفكار الجديدة ، وكان الشابى عضواً فيها وإن لم يكن من قدمائها ، وقد ألقى بها محاضراته عن الخيال الشعرى والتى أشرنا إليها .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤٧ .

أما النزعة الرومانسية العربية فقد أثرت فى شعراء تونس الشبان (وقتذاك) أمثال «الطاهر حداد ، ومحمدى شريبة وابراهيم أبو رقعة ومصطفى خريف ، وعبد الرزاق كرباكة ، والهادى المدنى ، ومحمد الحليوى - والصادق بازيغ .

كذلك فقد تأثر بأستاذه محمد الفاضل بن عاشور ، وزين العابدين السنوسى ، ومحمد البشير ، ومحمد الصالح المهيدى ، ومن قبل حسين الجزيرى وسعيد أبو بكر ، ومحمد فزنه دار ، وسالم الأكودى ، والشيخ الخضر التونسى ، ومحمد الشاذلى ، وسالم بن حميدة ، ومحمد مناشو (١) .

بهؤلاء وغيرهم من الشعراء التونسيين تأثر الشابى قبل أن ينحو نحوهم ويتفوق عليهم .. ومن ثم فلا يمكن - مهما كان حجم شاعرية الشابى - إنكار التأثير التونسى فى شعر الشابى ، كما لا يمكننا الزعم بأنه الشاعر الوحيد من بين هؤلاء جميعًا (أساتذته وأنداده) من نحا المنحى الإنسانى ، وإنما نحاه غيره ممن سبقوه أو عاصروه متأثرين بالغزو الرومانسى لثقافتهم الأدبية والشعر بصورة أخص ، وإن كان الأمر كما أومأنا - أن الشابى كان بمثابة البدر الساطع الذى حجب أضواء النجوم المتناثرة فى سماء الأدب التونسى الحديث .

الرافـــد المهجـــرى :

تكاد تتفق أغلب الدراسات التى كتبت عن الشابى على تأثير جبران فى شعر أبى القاسم ، والقول الفصل فى هذا الجانب يتضح من خلال إعجاب

---

(١) كيف ندرس الشابى» للدكتور محمد فريد غازى - نقلا عن كرو دراسات عن الشابى ص٢٥ بتصرف .

الشابى بجبران مع أنهما لم يلتقيا لقاء شخصيًا ، فلا الشابى زار المهجر الأمريكى ، ولا جبران زار تونس ، وإنما هو الإخاء الإنسانى والإعجاب الثقافى ، والانبهار بأدب جبران وشعره ، وروحه الإنسانية الشفافة .

«وقوام فلسفة جبران ، ومذهبه فى الحياة يرتكزان على «الحب والحرية والتمرد» وهى التى تكون مضمونه الأدبى ، وينبثق عنها رأيه فى الحياة ، وهذه العناصر هى التى تحدد له الأهداف التى كان يسعى إلى تحقيقها .

ويبرز جبران فى أعين المتطلعين إلى حياة خالية من الجمود والعبودية ماردًا جبارًا ، فقد كان أدبه ثورة عاصفة ، ودعوة حارة إلى النهوض ومماشاة الزمان »(١) .

وبرغم ارتفاع جبران عن الإقليمية فإنه كان وطنيًا مخلصًا فى حب وطنه ذلك الإخلاص الذى جعل حملاته تبلغ درجة من العنف لايقره عليه الكثيرون .

ويبدو أن أبا القاسم أعجب بعنف جبران على بنى قومه لأن الشابى كان عنيفًا - كذلك - على بنى قومه الذين لم يستجيبوا لتحريضه أو صراخه .. فهو القائل :

لست ياشيخ للحياة بأهل أنت داء يبيدها وتبيده

كمايرى ذلك الشعب - الذى عاش معه فى جيل واحد - طفلا لاعبًا بالتراب بينما الأخطار محدقة به .

أيها الشعب أنت طفل صغير لاعب بالتراب والليل مغس

---

(١) «الشابى وجبران» لخليفة محمد التليسى - نقلا عن كرو ص ٣٢ فى دراسات عن الشابى .

أما جبران فقد قال قبل الشابى : «إنما الشرق مريض تناوبته العلل ، وتداولته الأوبئة حتى تعود السقم ، وألف الألم ، وأصبح ينظر إلى أوصابه وأوجاعه كصفات طبيعية ، بل كخلال حسنة ترافق الأرواح النبيلة ، والأجساد الصحيحة» (١) .

كذلك فقد كان جبران رومانسيًا حالمًا ولكن فى ثوب من القوة والاستعلاء على تفاهات الحياة ، وكان الشابى كذلك شاعرًا طموحًا ، وأبيًا عنيدًا .... والرومانسية تقود إلى تبنى النزعة الإنسانية وقد ظهرت بوضوح فى شعر معظم شعراء المهجر ، وفى مقدمتهم جبران (٢) .

ووجد الشابى ذاته فى المنزع الإنسانى فألف المهجرين ، وألف جبران واتخذه صديقًا وأستاذًا منه يتعلم الكثير والكثير . ولا غضاضة فى ذلك التأثر مهما كان حجمه ونوعه فقد بقى للشابى شخصيته المستقلة مما يجعلنا نقول : إنهما كانا فرسى رهان ، فكلاهما إنسان ، وكلاهما يدرك مدى حاجة الناس إلى الإخاء والحب والعدل والحرية ، وكلاهما يدرك مدى حاجة المجاميع البشرية إلى من يغسل أدرانها ليزرع فى حقولها الخصبة نبتًا جديدًا من الإرادة والطموح ، وقوة العزيمة ، وتبنى قضية الإنسان فى كل مكان .

وكلاهما حاول الهروب من واقع أمته الردىء ، واستنكارها لما يقدمان لها من نهج صحيح ودرب راشد ، فهرب جبران إلى سفينته المبحرة إلى مابعد الواقع (٣) ... وإلى الغاب ..

---

(١) المصدر السابق ص ٣٤ .

(٢) من أبرز هؤلاء إيليا أبو ماضى وميخائيل نعيمة ونسيب عريضة وإلياس فرحات .

(٣) انظر كتاب «النبى» ، «وحديقة النبى» - ترجمة ثروت عكاشة .

وهرب الشابى إلى أحضان الطبيعة ، وإلى الغاب (رمز العزلة والبعد عن صخب الغوغاء) . وكلاهما أصطحب معه عند هروبه إلى الغاب العريض ، وتأملاته العميقة ، وروحه الإنسانية ذات المدلولات الكونية التى فطر الله الناس عليها .

وإذا كان التغنى بالغاب نغمة جبرانية (١) ، فإن الغاب أثير لدى الشابى : إليه يهرب ليعيش بين طيوره وأشجاره :

فى صباح الحياة ضمخت أكوابى ، وأترعتها بخمرة نفسى
ثم قدمتها إليك ، فأهرقت رحيقى ، ودست ياشعب كأسى
فتألمت ثم اسكت آلامى ، وكفكفت من شعورى وحسى ..
ثم نضدت من أزاهير قلبى باقة لم يمسها أى إنس
ثم قدمتها إليك فمزقت ورودى ودستها أى دوس!
ثم ألبستنى من الحزن ثوبًا ، وبشوك الجبال توجت رأسى
إننى ذاهب إلى الغاب على فى صميم الغابات أدفن بؤسى(٢)

وتظهر الروح الإنسانية بوضوح فى هذه القصيدة الشابية ؛ فقد ذهب إلى الغاب ليتأمل فى أسرار الوجود بالقدر الذى يعيه ، ويعيد حساباته وموقفه من الكون والحياة ، وليتآخى مع مفردات الطبيعة .

والخلاصة أن الشابى استمد ثقافته العلمية والإنسانية من عدة مشارب ؛ من تراثية الزيتونة ،وكلاسيكية الثقافة العربية ، ومن القيم النبيلة فى العطاء القرآنى الرائع الذى يحض على الإخاء الإنسانى والمودة بين الناس .. وقد تسربت هذه القيم والمثل إلى وجدان الشابى وهو فى مرحلة الطفولة حينما أتم حفظ القرآن الكريم كله وهو دون التاسعة ، وفى

---

(١) انظر «المواكب» لجبران .
(٢) أغانى الحياة ص ١٥٠ .

مرحلة الصبا وأوائل الشباب حينما درس علومه ، وعلوم الحديث النبوى وبيانه المشرق . والعلوم العربية المعاونة على فهم كتاب الله وسنة رسوله (١) - صلى الله عليه وسلم - كذلك فقد استمد الشابى ثقافته الإنسانية من عطاء الأدب الحديث عربياً ومترجماً ، ومن أدب الأدباء وشعر الشعراء التونسيين السابقين عليه والمعاصرين له ، وإن كان هو أسبقهم وأنضجهم وأبعدهم ذكرا ، وعلوا فى الآفاق .

كذلك فقد تأثر الشابى بالمهجريين - مافى ذلك ريب - ووقف عند جبران بالذات ، ووقف عند جبران بالذات ، وقوف التلميذ من الأستاذ ، والمبهور من المبهر ، والمفتون من الفاتن .. ولكن - وكما أومأنا من قبل - كانت له شخصيته المستقلة ، وكان له اتجاهه ومنازعه ، فهو تأثر القوى الناضج ، لاتأثر الضعيف المستكين (٢) .

المحن الحياتية والشعور بالإحباط :

وقع الشابى فى أتون العذاب النفسى ، والجسدى شاعراً بالإحباط بعد أن عاش مراحل حياته الأولى منعماً ؛ فالأب يحنو عليه ويعطف ، والطبيعة التونسية الخلابة تفتح ذراعيها للشاعر الغريد ، ولدات الطفولة

---

(١) يذخر كتاب الله بالآيات ذات المدلولات الإنسانية والاجتماعية : «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» ، وقوله سبحانه وتعالى : «ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا» وفى حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وما روى فى البخارى عن أبى هريرة : (لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه) ، وقيل : إن الأخوة هنا عامة تشمل المسلم وغير المسلم كأن يدعو لغير المسلم بهدايته إلى الإسلام ، وفى التراث الإسلامى الكثير المبهر .

(٢) ألف الأستاذ خليفة محمد التليسى : كتاباً عن الشابى وجبران ، وعنه نقل أبو القاسم محمد كرو فى دراساته عن الشابى ، ومن تلك أفدنا فى كتابة هذا الفصل .

يلعبون ويمرحون ، وله بينهم صداقات ومودات ، وحب طفولي بريء وجميل ، والإقبال على مناهل الثقافة الذاتية يزيده سعادة بعد سعادة ، والشاعرية تتفجر في إهابه .. تلك كانت حياته الأولى ، إلى أن ألم بالشاعر في أواسط حياته (إن تحملت التقسيم) كوكبة من المحن والآلام والمعاناة النفسية والجسدية : (مات الأب الحانى ، وتفرق الأصدقاء ، وماتت من قبل الحبيبة الملهمة ، وغامت الرؤى ، وتعددت الدروب : فالاستعمار ينهب خيرات بلاده ، والمحتل يجثم على صدرها ، والشعب مستكين صامت ، والصرخات مبددة ضائعة ، والقيود تفرض نفسها ، والمرض يقبل عنيفا قاسيًا ، ومطالب الأسرة تعلقت بكتفه وعضده ، وبقى الشاعر الرقيق النحيل الجسد ، المغترب في بلاده (١) يعانى من متطلبات الحياة المادية ومتاعبها الثقيلة ، ولايجد مفرًا غير الهروب إلى عالم المثل والرؤى والأحلام والخيالات المحلقة في سماوات الشعر والفن ... ولكن هيهات ... فالشعر لايطعم الأفواه الجائعة ، والمثاليات لاتسد رمقًا ، ولاتشترى دواء ، ولاتصد مرضًا !!

ويبدو أن أبا القاسم كان يعتمد على إرث تركه الوالد ، وإلا فمن أين له تكاليف الحياة - وقد هجر عالم الوظائف والمناصب - وآثر التفرغ للقراءة والشعر ، وارتياد منابع الثقافة والاطلاع ؟ .. إنه لايود أن يشرك مع الشعر والفن شيئًا من مغريات الحياة التافهة .

---

(١) مما رواه الشابى فى يومياته بتاريخ ١٩٣٠/١/١٣ «ذهبت أنا والأخ زين العابدين ، والأخ مصطفى خريف ، مساء اليوم إلى النادى الأدبى لإلقاء محاضرة عن كتاب «الأدب العربى فى المغرب الأقصى» الذى طلب منى النادى الأدبى أن أبسط لهم رأيى فيه ، ولكننا لم نجد أحداً هناك» [الأعمال الكاملة للشابى حـ٢ ص ٤٢ الدار التونسية] .

إنها المحن الكواسر ، والمواجع الفاتكة ، والآلام المبرحة .. وكلما فر إلى العوالم المجردة عاد إلى أرض الواقع فاصطدم بما يزيد المواجع ، وتضخم المحن ... من هنا كانت ثورته ، وكان عذابه ومن هنا أيضًا تنامت إنسانيته ، وهل يعرف آلام الناس إلا من ذاق الألم وعانى المتاعب ، واصطلى بكروب الأيام والليالى ؟ ..

ونظرة فاحصة إلى ديوانه ومجموع أعماله نجد من الشعر مايترجم عن مأساته وهمومه وأوجاعه ، وهذه قصيدة «أكثرت ياقلب فماذا تروم؟ » وفيها يتألق النبض الإنسانى الحزين إلى جانب التمزق القلبى ، وتحطم الآمال على صخرة اليأس العنيد

ياقلبى الدامى ! إلام الوجوم ؟
يكفيك ! إن الحزن فظ ، غشوم
هذى كئوسى مرة ، كالردى
ما ملؤها إلا عصير الهموم
.....
ياقلبى الباكى إلام البكاء؟
مافى فضاء الكون شىء يدوم
فانشر غبار الحزن فوق الدجى
واسمع إلى صوت الشباب الرخيم
ألى أن يقول:
ياقلبى الداجى ! إلام الوجوم ؟
إن لم ألم قلبى فمن ذا ألوم؟
مالك لا تصغى لغير الأسى
مالك لا ترنو لغير الكلوم (١)

(١) أغانى الحياة ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

ترى هل دفعته هذه المحن والآلام إلى آفاق ممتدة رحبة كان يبحث فيها عن علاج لحالته النفسية الكئيبة ؟ ... أم أنه الهروب إلى عالم الإنسانية الواسع العريض فرارًا من مواجهة الواقع الردىء المفعم بالحيرة والتوتر والقلق ؟

الحيـــرة والقلـــق والتـــوتر :

لم يسلم شاعرنا من حيرة مؤرقة ، وقلق عنيف توتر يرهق الأعصاب ولكنه يساعد على الإبداع والتخيل ، فليس كل قلق حالة مرضية ، وإنما هناك ما يمكن أن نسميه القلق العظيم ذلك الذى يدفع صاحبه إلى الابتكار والتجويد وقد انعكس هذا القلق العظيم على شعر الشابى فهو تارة فيلسوف ساخر ، وأخرى ثائر جبار ، وثالثة يائس مستسلم ... ثم هو يعبر عن ذلك كله فى همس شعرى رقيق ، وأداء نفسى جذاب وتصوير فنى ممتاز ، وحزن آسر شفاف .. ويسوقه هذا نحو الآفاق الإنسانية الكبرى لتنداح هذه الحيرة الذاتية والقلق العنيف والتوتر المقلق فى هذه الآفاق :

لســت يا أمــى أبكيك لمجـد أو لجاه
سلبتــه منى الدنيــا ، وبزتنــى رداه
فأنا احتقـر الموت وأوهـــام الحيـاة (١)

وذلك يعنى أن الرجل خرج من حدود أقليميته النفسية محتقرًا المجد والأوهام ، بل والحياة نفسها ... مع أن واقعه يقول : إنه كان من عشاق الحياة (٢) ولكنه التوتر والحيرة والجو الرومانسى الحزين .

---

(١) أغانى الحياة ص١٧٨

(٢) يلاحظ تسميته لديوانه الشعرى بـ : (أغانى الحياة) .

ويدلنا على عشقه للحياة وتعلقه بها أن أبا القاسم الذى احتقر المجد وأوهام الحياة هو نفسه القائل فى قصيدة «نشيد الجبار» :

سأعيش رغم الداء والأعداء ... كالنسر فوق القمة الشماء
أرنو إلى الشمس الكئيبة هازئا ... بالسحب والأمطار والأنواء
وأقول للجمع الذين تجشموا ... هدمى وودوا لو يخر بنائى
ورأوا على الأشواك ظلى هامدا ... فتوهموا أنى قضيت ذمائى :
إن المعاول لاتهد مناكبى ... والنار لا تأتى على أعضائى(١)

ثم يعود - نتيجة مايعتريه من حيرة وقلق وتوتر - إلى وديان اليأس مستسلماً فى «ظل وادى الموت» .

قد رتعنا مع الحياة طويلا ... وشدونا مع الطيور سنينا
وعدونا مع الليالى حفاة ... فى شعاب الزمان حتى دمينا
وأكلنا التراب حتى مللنا ... وشربنا الدموع حتى روينا

إلى أن يقول :

وزهور الحياة تهوى بصمت ... محزن مضجر على قدميا
جف سحر الحياة ياقلبى الباكى ... فهيا نجرب الموت هيا(٢)

وهو يقول فى قصيدة «ألحانى السكرى» معبراً عن حبه الجم للحياة :

نحن نحيا كالطير فى الأفق الساجى ... وكالنخل فوق غض الزهور
لا نرى فتنة العالم الحى ... وأحلام قلبها المسحور
نحن نلهو تحت الظلال ، كطفلين ... سعيدين ، فى غرور الطفولة
وعلى الصخرة الجميلة فى الوادى ... وبين المخاوف المجهولة

---

(١) أغانى الحياة ص ٢٥٦، ٢٥٨ .
(٢) أغانى الحياة ص ٢٠٩ .

إلى أن يقـــول :

نحن مثل الربيع نمشى على أرض ... من الزهر والرؤى والخيال
نرقبها يرقص الغـرام ويلهو ... ويغنى فى نشـوة ودلال
قد سكرنا بحبنا، واكتفينا ... طفح الكأس فاذهبوا ياسقاة
نحن نحيا فلا نريد مـزيداً ... حسبنا مامنحتنا ياحياة(١)

ولكنه يرى من خلال منظاره الإنسانى المكبر أن الدهر والزمن والكون والموت لن يتركوه يتغنى بالأحلام والحب والجمال فى الوجود الكبير ، ومن ثم فهو يستدرك استدراك الشاعر الحساس الذى يرقب الأمور ، ويدرك متغيرات الحياة فيقول فى نهاية القصيدة :

وإذا ما أبيتـم فاحملونا ... ولهيب الغرام فى شفتيـا
وزهـور الحياة يعبق بالعطر ... وبالسحر والصبا فى يديـا

وهكذا كان القلق بكل مايحمل من توتر وتردد وحيرة مصدراً خصباً من مصادر النزوع الإنسانى لدى الشابى فليس أمامه من مهرب سواه - وهناك فى هذا المهرب الذى اختاره وأنس إليه يعيد ترتيب أوراقه ، ويسافر عبر أخيلته باحثاً عن المخرج والخلاص من توتره وقلقه وتمزقه وحيرته ، وآلامه ومحنه وتساؤلاته .. ويجد المخرج وينفذ إليه عبر ظواهر متعدده نشير إلى بعضها وأبرزها .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

الظواهـــر "من خـــلال الرؤيـــة التطبيقيـــة" :

توقفنا عند أبرز العناصر ... - ولانقول كلها - تلك التى تفرد بالشاعر أبى القاسم الشابى نحو استنبات الجانب الإنسانى فى شعره ، وحنينه إلى الارتماء فى أحضان التعبير عن عذابات الإنسان وآلامه ، والوقوف بجانب المظلومين ، والمعذبين فى الأرض ممن عضهم الدهر بنابه ، وفرقهم الاستعمار بعصاه ، وتمزقوا فى الأرض شيعاً وأحزاباً ... فى الوقت الذى كانوا فيه أحوج مايكونون إلى التجمع والوحدة ، والوقوف فى وجه الاستعمار والطغاة .

ونعود لنؤكد أن الشابى لم يك فى حاجة إلى عوامل ضغط كى يدخل إلى دائرة النواحى الإنسانية ، وإنما ساعدت هذه العناصر على بروز هذا الاتجاه فى شعره . فالثقافة كما أسلفنا ، والنشأة كما وضحنا إلى جانب الألم والمرض والشعور بوطأة المحتمل إلى آخره ... كل ذلك دفعه نحو منزعه الإنسانى الذى هيىء له بطبيعه تكوينه وسر عبقريته النازعة إلى غايات أسمى وأبعد وأشمل من واقعه .

أما الظواهر التى قدم الشابى رؤيته ونماذجه الشعريه ذات الطابع الكلى من خلالها ، فتتمثل فى جوانب كثيرة نكتفى بإيراد أبرزها (١) .

العالـــم المثـــالى المتخيـــل :

يختلف الناس فى مواقفهم من نوائب الدهر ، ونكبات الأيام والليالى التى لابد أن تلم بالإنسان ... مهما كان موقعه وشأنه - خلال حياته طالت أم قصرت ، فمنهم من يواجه ويصبر ويصابر حتى يأذن الله بانجلاء النائبة ، وكشف الغمة ، ومنهم من يقابل ذلك بالابتسام والسخرية

---

(١) وذلك حسبما تتحمل طبيعة هذه الدراسة .

والتمتع بطيبات زمانه ، ومنهم من يهرب عبر عالم مثالى متخيل ، ودنيا بعيدة عن واقع المشكلة .. ويبدو أن معظم الشعراء من النوع الأخير فحياتهم تختلف عن حيوات الناس ، ودرجه الشفافية أو الشعور المتلهب لديهم يرتفع إلى مالم يرتفع إليه غيرهم .... وقد كان الشابى - مع واقعيته وإحساسه بوطأة الألم الذى يحيق به ، وبشعبه ووطنه يحاول الهروب من أرض الواقع إلى سماوات الأحلام والرؤى المجنحة والعالم المثالى البعيد متخذًا من اليأس أحيانًا - واليأس كما يقال : إحدى الراحتين

- ومن التصوف معراجًا يعرج عليه إلى مايتخيل ويأمل ، ففى قصيدة «الأشواق التائهة» نستمع إليه وهو يردد :

ياصميم الحياة ! إنى وحيد مدلج تائه فأين شروقك ؟
ياصميم الحياة ! إنى فؤاد ضائع ظامىء فأين رحقيك ؟

إلى أن يقول مصورًا شقاءه بغربته النفسية ، وكأنه يبرر هروبه من بين قوم لايفهمون أشواق روحه ، ولايأسوق لمعانى بؤسه :

ياصميم الحيـاة ! كـم أنا فى الدنيا غريب ! أشقى بغربة نفسى
بين قـوم لا يفهمـون أناشيـ ـد فـؤادى ، ولا معـانى بؤسـى
فى وجـود مكبل بقيـود ، تائـه فى ظـلام شـك ونحـس

ثم يؤكد على مشروعية هروبه فيقول فى المقطع الأخير من القصيدة :

لم أجد فى الوجود إلا شقـاء سرمديًا ، ولذة مضمحلة وأمانى ، يغرق الدمع أحلاها ، ويغنى يم الزمان صداها

وأناشيد يأكل اللهب الدامى مسراتها ، ويبقى أساها
وورودا تموت فى قبضة الأشواك ، ، ماهذه الحياة المملة(١)

وهذه قصيدة «أحلام شاعر» يعبر فها الشابى عن الحنين إلى العالم المثالى الجميل ، والمدينة الفاضلة التى يتخيلها :

ليت لى أن أعيش فى هذه الدنيا سعيدا بوحدتى وإنفرادى
أصرف العمر فى الجبال ، وفى الـ غابات بين الصنوبر الميادى
وأغنى مع البلابل فى الغاب ، وأصغى إلى خرير الوادى
وأناجى النجوم والفجر ، والأطيـ ـار والنهر والضياء الهادى

إلى أن يقول متابعا صوره المتخيلة :

وبعيدا عن المدينة والناس ، بعيدا عن لغو تلك النوادى
فهو من معدن السخافة والإفك ، ومن ذلك الهراء العادى
أين هو من خرير ساقية الوادى وخفق الصدى ، وشدو الشادى
وحفيف الغصون نمقها الطل ، وهمس النسيم للأوراد؟
هذه عشية تقدسها نفسى ، وأدعو لمجدها وأنادى(٢)

وهناك عدة قصائد تنحو هذا المنحى تتناثر عبر ديوان الشابى منها «قيود الأحلام» و«الجنة الضائعة» و «من أغانى الرعاة» كما أننا نستطيع أن نعد كل قصائد الالتحام بالطبيعة وتمجيدها من القصائد المعبرة عن العالم المثالى المتخيل .

ولكن يبقى السؤال - هل نجح هذا العالم المثالى المتخيل من فصم العلاقة بين الشابى وبين واقعه الأليم ؟

---

(١) أغانى الحياة ص ١٦٨ ، ١٦٩ .
(٢) المصدر السابق من ١٧١، ١٧٢ .

- يبدو أن أن جاذبية الهموم ، وواقعية الأحداث تشد الإنسان إليها مهما حاول الفرار والتخلص من قيودها .

الواقعيـــة المـــريرة :

لم تمنع إنسانية الشابى ولم يعقه هروبه إلى الغاب حيث ينشد العالم المثالى باحثًا عن مدينته الفاضلة التى يتخيلها فرارًا من الخوض فى حقول الواقعية المريرة ، والتعامل مع هذه الواقعية ، «وقد كان الواقع السائد فى عصر الشابى مشوهًا بالاستعمار العسكرى المباشر ، ومشوهًا بما فى واقع العرب أنفسهم - والتونسيين آنذاك بصورة خاصة - من غفلة وجمود وعمق ، ومشوهًا - كذلك - بكثير من التقاليد العقيمة التى جثمت على الصدور ، وأنشبت أظافرها فى الواقع الإنسانى فجعلته خائبًا خاليًا من اللهب الحى المشتعل»(١) .

صحيح أنه كان شاعرًا حالمًا محلقًا ، ولكن أحلامه الملحقة لم تمنعه عن النزول إلى ميدان المجتمع ، والسير فى موكب البشرية عازفًا على أوتاره الشعرية ، مشجعًا هاديًا مهيبًا بالصاغرين والضعفاء والمستسلمين ... وعندما ننظر فى قصيدته المشهورة «إرادة الحياة» متجاوزين أبياتها الزائفة المحفوظة لنتوغل داخل القصيدة نفسها نرى الشابى الواقعى ، وهو يتعامل مع الحياة ومع الواقع فى حالته الإيجابية وليس فى حالته السلبية (٢) .

ومع أن الشابى شاعر رومانسى بكل مقاييس الرومانسية ومعاييرها إلا أنها الرومانسية الثورية فالشعب عند الشابى ليس ضعيفًا ولا متخاذلا ، أو بمعنى آخر هو يريده بطلا لا تقهر إرادته ولا ترد كلمته

---

(١) ثلاثون عامًا مع الشعر والشعراء ص ٥٣٦ .

(٢) يمكن الاطلاع على القصيدة كاملة فى أغانى الحياة ص ٢٤٠ .

مهما عرض له من الضعف المؤقت .. كما أن العدو - فى رؤيته - واضح المعالم ، وبينه وبين الشعب خط فاصل ظاهر ببعديه : المحلى والعالمى ، وهزيمة العدو - فى مفهومه - آتية لاريب فيه :

فيا أيها الظلم المصعر خده ... رويدك إن الدهر يبنى ويهدم
سيثأر للعز المحطم تاجه ... رجال إذا جاش الردى فهم هم
رجال يرون الذل عارا وسبة ... ولا يرهبون الموت والموت مقدم
وهل تعتلى إلا نفوس أبية ... تصدع أغلال الهوان وتحطم(١)

ثم يقول فى قصيدة «إلى الطاغية» :

لك الويل ياصرح المظالم من غد ... إذا نهض المستضعفون وصمموا

وفى قصيدة «تونس الجميلة» ينزل إلى أرض الواقع ليقول :

أنا يا تونس الجميلة فى لج الهوى قد سبحت أى سباحة
شرعتى حبك العميق وأنى قد تذوقت مره وقراحه
لست أنصاع للواحى ولو مت وقامت على شبابى المناحه
لا أبالى .. وإن أريقت دمائى فدماء العشاق دوما مباحة
إن ذا عصر ظلمة غير أنى من وراء الظلام شمت صباحه
ضيع الدهر مجد شعبى ولكن سترد الحياة يوما وشاحه(٢)

«وهكذا فشعر الشابى على قتامة الظروف التى كتب فيها - الذاتية منها والموضوعية - شعر طافح بالأمل ، متفائل ، واثق من المستقبل ، مدرك لقوانين التاريخ فى زوال قوى الظلم والظلام ، وانتصار قوى الحياة ..

---

(١) أغانى الحياة ص ٢٨١ .
(٢) المصدر السابق ص ٨٧ .

لقد مثل الشابى بذلك خطوة جريئة فى طريق تخطى الرومانسية الكلاسيكية المتأزمة وفى التمهيد لظهور الواقعية الجديدة(١) .

التمرد والثـــورة والنـوبـــان فى همـــوم الوطـــن

يعد الشابى من أكثر الشعراء الرومانتيكين ميلا إلى المزج بين عواطفه الذاتية ، ومشاعره الوطنية فى إطار من الطبيعة الدافئة التى تعد عنصرا مشتركا فى كثير من محاوره وصوره الشعرية .

كما يعد الشابى - كذلك - فى مقدمة الشعراء المعاصرين ميلا إلى الثورة والتمرد والحض عليهما ؛ فهو مشغول بقضايا أمته وشعبه ووطنه، ينفث فى شعبه روح الثورة على الخمود والجمود فلابد من الإيمان الصادق بالحياة .

سر مع الدهر ، لاتصدنك الأهوال ، أو تفزعنك الأحـــداث
سر مع الدهر ، كينما شاءت الدنيا ، ولايخدعنك النعاث
فالذى يرهب الحياة شقى سخرت من مصيره الأجـداث (٢)

ولقد تبلور الشابى فى خضم الألم والثورة العنيفين ، فظهرت فيها عبقريته الشعرية ، ولكن سخطه على عيشة ، وتبرمه بشعبه ، وتشاؤمه (أحيانا) من حياته جعله يلهب ظهر الشعب بسياط ملتهبة فهو يطلب له الخلاص والرفعة والكمال :

أين يا شعب قلبك الخافق الحساس ؟ أين الطموح والأحـــلام ؟
أين يا شعب روحك فنك الساحر الخلاق ؟ أين الرسوم والأنغام؟
إن يم الحيـاة يدوى حواليـك فأين المغامـر المقـدام ؟

---

(١) معانى التجاوز فى شعر الشابى ص ٤٥ .
(٢)

أين عزم الحياة ؟ لا شيء إلا الموت والصمت والأسى والظلام

.....

أى عيش هذا ؟ وأى حياة ؟ «رب عيش أخف منه الجمام»(١)

وللشابى فى هذا المجال قصيدته المعروفة «إرادة الحياة» تلك التى يعرف منها الناس مطلعها المتمثل فى بيتيه الرائقين اللذين ألحت عليهما وسائل الإعلام حتى صارا كالأمثال ، برغم أنهما ليسا من أجود أبيات القصيدة ، وبالرغم ما فيهما من تعبير حماسى مباشر .

إذا الشعب يوماً أراد الحياة ... فلابد أن يستجيب القدر
ولابد لليل أن ينجلى ... ولابد للقيد أن ينكسر

ولعل الجديد فى هذه القصيدة هو مابها من «تصميم» يقوم على عرض الفكرة التى يحولها الشاعر من خلال وجدانه ، وصوره الرومانسية إلى إحساس يقينى بإرادة الحياة ، وبأنها تمضى فى دورات متعاقبة يبدو بعضها وقد شاع فية الموت ، وهو ليس فى الحقيقة إلا «مرحلة» من مراحل الإنتقال والتهيؤ لحياة جديدة شابة . ويتخذ الشاعر من البذرة التى تدفنها ثلوج الشتاء حتى يأتى الربيع فتروق وتزهر من جديد رمزاً لهذا التجدد الدائم»(٢) .

ويبدأ الشاعر قصيدته الطويلة بجوار وبين عناصر الطبيعة يسأل فيه عن أمثل السبل التى ينبغى أن يسلكها المرء فى الحياة فتنتهى إلى دمدمة الريح بين الفجاج وفوق الجبال ، وتحت الشجر مجيبة تساؤلة :

إنا ماطمحت إلى غاية ... ركبت المنى ونسيت الحذر
ولم أتجنب وعور الشعاب ... ولا كبة اللهب المستعر

---

(١) قصيدة «إلى الشعب» أغانى الحياة ص ٢٥٠ .
(٢) الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر ص ٢٥٣، ٢٥٤ .

من لايحب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر

ويمضى الشاعر الرومانسى الحالم متابعا استيحاء عناصرها الطبيعية ممتزجا بها ، من ذلك حديثه عن البذرة حين يجىء الشتاء :

يجىء الشتاء شتاء الضباب شتاء الثلوج ، شتاء المطر
ينطفىء السحر سحر الغصون وسحر الزهور ، وسحر الثمر
وسحر السماء الشجى الوديع ، وسحر المروج الشهى العطر
وتهوى الغصون وأوراقها ، وأزهار عهد حبيب نضر
وتهو بها الريح فى كل واد ، ويدفنها السيل ، أنى عبر

ويتحول الشاعر المتأجج حماسا من أجل الوطن إلى شىء من مفردات الكون يمتزج بالطبيعة يذوب فيها ليبحث عما افتقده :

ظمئت إلى النور فوق الغصون ظمئت إلى الظل تحت الشجر!
ظمئت إلى النبع ، بين المروج ، يغنى ويرقص فوق الزهر
ظمئت إلى نغمات الطيور ، وهمس النسيم ، ولحن المطر

وينهى الشابى قصيدته كما بدأها بتمجيد الإرادة وكيف أنها كامنة فى مظاهر الطبيعة لا يكاد يفطن إليها إلا أصحاب الهمم العالية ممن لايعرفون اليأس ولا الفشل ولا القنوط .

وأعلن فى الكون : أن الطموح لهيب الحياة ، وروح الظفر
إذا طمحت للحياة النفوس فلابد أن يستجيب القدر(١)

ولاشك أن هذا المعنى الكلى الذى تدور حوله القصيدة يمكن فى الوقت نفسه أن يكون شعورا ذاتيا عند الشاعر الوجدانى الذى يتأرجح بين

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤٠ - ٢٤٣ .

الأمل واليأس ، والتفاؤل والتشاؤم ، ويتخذ من الطبيعة فى كلتا الحالتين سلوى فى يأسه وحافزاً فى تفاؤله» (١) .

ومهما قيل عن الشابى وموقفه العدائى من شعبه والشعوب المغلوبة على أمرها فلا يمكن أن نجرده من وطنيته وإنسانيته ونوبانه بهمومه الذاتية فى هموم أمته الكبرى ، وشعبه الصغير ؛ فهو يستجيب للضغوط الاجتماعية ، ويعيش آلام وطنه ؛ فالإستعمار الفرنسى لبلاده من أعتى ألوان الاستعمار ، ولم يقتصر الأمر على وطنه وشعبه وإنما يضرب الاستعمار بأيد باطشة فى كل أنحاء العالم العربى .

بدأت بشائر الهبه التحررية تسرى فى أعصاب العالم العربى من أقصاه إلى أدناه مما حفز الشاعر وجعله يتعاطف مع أمته وشعبه متدثرا بالأمل الإنسانى الكبير ومتعاطفا مع المظلومين فى كل مكان .

ويدرك أن الإستعمار يقف فى وجه كل الحركات الإصلاحية فى بلاده فيعبر عن ذلك فى دفعة حماسية عرف بها :

كلما قام فى البلاد خطيب ... موقظ شعبه يريد صلاحه
ألبسوا روحه قميص إضطهاد ... فاتك شائك يرد جماحه
أخمدوا صوته الإلهى بالعسـ ... ـف أماتوا صداحه ونواحه (٢)

فالثورة عند الشابى نقطة انطلاق فى دعوته الوطنية ، وهى حجر الزواية فى بناء شخصيته المتمردة الجموح ... وثورته كانت - دائما وأبداً - موجه إلى أعداء الحياة وإلى الطغاه فى كل مكان .. إلى الاستعمار والظالمين والجاحدين ، والمستضعفين فى الأرض .. ومن ثم نراه يهدد الظالمين بثورة المستضعفين .

---

(١) الاتجاه الوجدانى ٣٥٦ .
(٢) أغانى الحياة ص ٢٤ .

لك الويل ياصرح المظالم من غد إذا نهض المستضعفون وصمموا
إذا حطم المستعبدون قيودهم وصبوا حميم السخط أيان يعلم
أتمرك أن الشعب مغض على قذى وإن الفضاء الرحب وسنان مظلم(١)

ولنستمع إليه وهو ينادى المستعمر الباغى ويهدده ويتوعده :

رويدك لايخدعنك الربيع ، وصحو الفضاء وضوء الصباح
ففى الأفق الرحب هول الظلام ، وقصف الرعود ، وعصف الرياح
حذار فتحت الرماد اللهيب ، ومن يبذر الشوك يجن الجراح (٢)

وهكذا وقف الشابى من قومه وقفة الثائر الذى يشد أبصار الناس إلى أعلى عليين حيث القيم السامية الخالدة .. ولا يجعل من همه أن يستثير فى الناس رغبات أبدانهم الشهوانية الجائعة ، بل يود لو طاروا معه بأجنحة الروح إلى مسالك النجوم .

وإذا كان الشابى يقسو أحيانا على وطنه وشعبه فى مواطن متعددة فقد كانت قسوة المحب المبصر - قسوة الرحماء - وما كان يأسه إلا عارضاً زائلا يحفزه إلى همه جديدة .

الإحساس الحاد بالألم :

مثلما يختلف المصطفون الأخيار من الشعراء فى استقبال مشكلات الحياة وهمومها وأوجاعها ، يختلفون فى التعبير عنها فمنهم «من نقرأ شعره ، ونحس كأننا فى حلم سحرى ، ونشعر بشىء ومن التسريه عن أنفسنا والراحة والمتعة الحقيقية لأن الشاعر ينفس عما فى داخلنا بما يجرى على لسانه من أبياته ، أو قل من مشاعره وإحساساته فنحن معه

---

(١) ٦٤ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٦٤ .

نستقبل أنفسنا وعالمنا بكل مافيه من اضطرابوقلق وكمال ونقص ، فالعالم ليس كمالا خالصًا ، ولا نقصًا خالصًا بل هو مزيج منهما ، مزيج ينتظر الشاعر الذى يحسه إحساسًا حادًا ويعرضه ... وليس من شك فى أنه بمقدار مايكون فى الشاعر من مادة الإحساس تكون موهبته فى الشعر ، كما يكون تأثيره فى سامعيه وقرائه »(١) .

ولقد كانت المحن والآلام والأوجاع وهموم الحياة ثقيلة ثقيلة على كتف الشابى ذلك الشاعر النحيل المتبرم(٢) فتضخمت أمام رؤيته الآلام ، وكبرت فى مخيلته الهموم والمتاعب والأحزان فهو يشعر بها شعورًا مضاعفًا ، ولذلك فهو ساخط ناقم أحيانًا ، وهو مستكين هادى أحيانًا أخرى ، ولكنه فى الحالتين يشعر بما لم يشعر به الآخرون ؛ لأن حالات الحيرة والتوتر والقلق التى كان يحياها - جعلته يشعر بالألم عنيفًا مكبرًا - إلى جانب أنه كان شاعرًا رومانتيكيًا مستغرقًا فى رومانتيكيته ، ومعظم شعراء الرومانتيكية تستغرقهم الأحزان وكأنها لغة مشتركة بينهم .

ويرى الدكتور شوقى ضعيف أن «ابن الرومى» كان يحس بأعصابه وهى تهتز وترتجف فى شعره ، وأنه لم يحس نفسه فقط ، بل أحس كل ما حوله من دقائق الحياة ، وكذلك كان المتنبى ، وكان أبو نواس (الحسن بن هانىء) وكان أبو العلاء حبيس بصره يجول دائمًا فى أحشاء الظلام جولات ردته إلى التفكير فى مصير الإنسان المادى والروحى ، ومايجرى فى الحياة من خير وشر .

---

(١) دراسات فى الشعر العربى المعاصر ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) بينا خلال فصل المصادر جوانب من هذه المحن والآلام .

فإحساسه الرقيق بألمه جعله ينفذ إلى داخل نفسه ، وإلى أعماق المجتمع ، وأعماق الكون ، وينفذ - كذلك - إلى كثير من أسرارهما بما لم يستطعه أفذاذ المبصرين من حوله» (١) .

وحينما نعود إلى أبى القاسم الشابى - من خلال قراءة ديوانه والاطلاع على يومياته ومجريات حياته - نشعر أنه عاش لشعره ، وعاش شعره معه فاتجه إلى نفسه وإلى عصره وأمته وهمومه الإنسانية التى كانت تنعكس عليه فيصورها من خلال شعوره بالقيم المطلقة الكبرى (الحق والجمال والكمال) وظل هذاالشعور يجرى فى شعره تياراً متدفقاً لا ينقطع ولا ينفصل عن أى قصيدة أو أى مقطوعة ينظمها ، ولكن هذا الشعور ليس هو الذى استنفذ شعره ، إنما استنفذه شعور أخر هو شعوره بألمه وعلته التى أصابته فى شرخ شبابه» (٢) .

ولم يجد الشابى إزاء هذا الإحساس الحاد بالألم ، وهذا الشعور العنيف بالحزن والأسى والشجن غير نأى شعره فعزف عليه قصائده ومقطوعاته المضخمة بشعوره الحاد الحزين ولامبالغة حينما نقول مع القائلين (٣) : إنه غنى أشجى أغانينا فى العصر الحديث .

ونقرأ له قصيدة «أغنية حزينة» لنتبين موقفه فى هذا الجانب ولندلل على صدق ما نقول :

حطمت كف الأسى قيثارى

فى يد الأحـــــلام

فقضت صمتاً أناشيد الغرام

---

(١) المصدر السابق ص ٤٩ ، ٥٠ بتصرف

(٢) المصدر السابق ص ٥٠ ، ٥١ .

بين أزهـار الخريف الذواية
وتلاشت فى سكون الاكتئـــاب
كصـــدى الغـــريد
كف عن تلك الأغانى الباسمة
أيها العصفـــــور !
فحياتى ألفت لحن الأسى
من زمان قد تقضى وعسى
أن يثير الشدو ، فى صمت الفؤاد
أنة الأوتـــــار ! (١)

ولست مع القائلين بذاتية هذا الإحساس ، واستغراق الشاعر فى الألم وحيداً دون إحساس بالآخرين ، فتصوير الألم بهذه الحدة ، وبهذه الدقة يجعلنا نقف معه ، وكأننا نقف مع أنفسنا ، وهذا هو الصدق النفسى والفنى .. وهو بذلك يتحول من الذاتية الفردية إلى ساحة الوجود الكبير حتى يشعر قارىء هذا الشعر التصويرى النابض والمفعم بالشجن والأسى بتمزقات قائله ، وتعاطفه معه وكأن هذا الشاعر جاء ليعبر عن حالته وعن أحوال الآخرين .. ومن من الناس لم يستشعر الألم ويذ ب فى طاحونته القاسية ؟ .

ويرى الدكتور زكى نجيب محمود «أن الشابى كان يعزف على قيثارة الشعر ألحانا فيها مرارة الحياة الثائرة ، وكأنما القيثارة من لحم ودم ، وكأنما اللحن من نار - فماذا نتوقع إلا أن تحترق الآلة وشيكا بلحنها وهذا ماكان» (٢) .

---

(١) أغانى الحياة ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) يشير الدكتور زكى نجيب محمود إلى قصر حياة الشابى ، ويقرنه بزميليه

ويكاد يتوحد الشابى مع ربيعه الذادية فهى حزينة وهو حزين مثلها وفى قلبها الغض صوت اللهيب ، وفى قلبه العليل صوت الرحيل ، وإن هجرتها الغيوم ، فقد عانقته نبات الجحيم »

أزنبقة السفح ؟ مالى أراك تعانقك اللوعة القاسية؟
أفى قلبك الغض صوت اللهيب يرتل أنشودة الهادية؟
إذا أضجرتك أغانى الظلام فقد عذبتنى أغانى الوجوم
وإن هجرتك بنات الغيوم فقد عانقتنى بنات الجحيم
وإن جرفتنى أكف المنون إلى اللحد أو سحقتك الخطوب
فحزنى وحزنك لايبرحان أليفين رغم الزمان العصيب (١)

على أن الشابى لم يركن إلى الألم بالرغم من حدته البالغة - ركوناً كلياً يصل إلى حد السلبية ، وإنما ارتفع على آلامه .. وتجرع كأس مرارته وحده دون شريك ، ثم أهال هذه المرارة إلى شعور حى متألق ينبض بالحيوية والإشراق والأشواق - فهو يغنى ويسمع لمن يغنى :

غنى ياأخى فالكون تيهاء بها قد تمزقت أقدامى
غنى ، علنى أنيم همومى، إننى قد مللت من تهيامى

كان الشابى - كما رأينا - متلهب الإحساس ، مرهف الشعور ، ممزق الوجدان فهو يبكى عند غنائه ، ويغنى عند إرتفاع حدة الألم .. ويصلح أن يكون ديوانه كله نماذج للإحساس الحاد بالألم .

= التيمانى يوسف بشير ومحمد عبد المعطى الهمشرى فكلاهما احترق بالعزف على قيثارة حياته ، وماتوا جميعاً فى شرخ الشباب (انظر الشعراء ص ١٠٠) .

(١) أغانى الحياة ص ٥٢ .

نقاء الفطرة والاندماج فى الطبيعة

الحب عند الشاعر الرومانسى حب شامل كبير يشمل الكون والناس والحياة .. فهو يتعاطف مع الزهرة والحشرة ، مع الجبال والوديان ، والورود والصخور ، مع العشب وشوامخ الأشجار .. مع الطير والنهر ، والأمواج والبحار ، .. وهو يتآخى مع الليل إذا أقبل ، ومع الصبح إذا أسفر مع الظهيرة والأصائل .. ولحظات الشروق والغروب ... والخلاصة أنه يهرب من نفسه ومن ظروفه وهمومه ، وواقعه إلى هناك بين أحضان الطبيعة ومظاهرها حتى لنراه يمزج بين عواطفه وبين الظلام والنور ، والحقيقة والخيال .. بل ويمزج بينها وبين الحياة والموت عل السواء .

وحينما نسأل عن أبرز محاور شعر أبى القاسم الشابى فلا مفر من تقرير أن الطبيعة هى كل شعر الرجل ... عشقها صغيرًا (١) والتحم بها صحيحًا ومريضًا ، وتوغل فى مجاليها ومظاهره بكل مايملك من إحساس مرهف ، وشعور رقيق (٢) ، فهو يعيش آلام مجتمعه وطموحات أمته بكل ما فى بيئته من متناقضات ، وعبر عنها تعبيرا رومانسيًا صادقًا ، عبر عنها بإحساس الفنان ، وشعوره الشفاف ، واندماجه الكلى فى وجدان أمته ، وارتباطه الفعال بميراثها الحضارى ، ومستقبلها الذى يتبرعم فى خياله وحلمه - ثم اندماجه - أيضًا - فى الطبيعة ومحاولاته أن يكتنه أسرارها ، وأن يمتزج بجزئياتها ، وأن ينخرط فى جوهرها ، وظلالها معبرًا بريشة الفنان عن هذه الأسرار والجزيئات والظلال ، مشاركًا فى أفراح الطبيعة وبهجتها وانطلاقها ،

---

(١) وهو ينتقل بين ربوع تونس الخضراء .

(٢) فى ديوان الشابى أكثر من مائة قصيدة ومقطوعة شعرية لاتكاد تخلو قصيدة أو مقطوعة من تصوير للطبيعة أو لمس جانب منها .

تتجلى في بحيرات أحزانها وتقوقعها وانكماشها .. فالطبيعة ككل كائن حي ذات أحوال وأسرار :

عذبة أنت كالطفولة ، كالأحلام ، كاللحن ، كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك ، كالليلة القمراء ، كالورد ، كابتسام الوليد

إنه يستعير من الطبيعة المتغلغلة في وجدانه جزئياتها بعد أن تصهر معها ، وذاب فيها ، وتوغل في حناياها وأحشائها لكي يجعلها مقياساً لما يعتمل في دواخله .. يعكس عليها أبعاده ورؤاه نحو مايحب وما يكره .. ولا فرق عنده في عالم المدركات بين الحسيات والمعنويات مادام يجمعها إطار شعوري واحد :

وسألت الليل ، والليل كئيب ورهيب
شاخصاً بالليل ، والليل جميل وغريب
أترى أنشودة الرعد أنين وحنين
أم هي القوة تسعى باعتساف واصطخاب
يتراءى في ثنايا صوتها روح العذاب!(١)

. ولايمكن أن تفرض علينا قيود المعايشة لشعر أبي القاسم تمجيده ومحاولة إثبات تفرده بهذا اللون دون غيره من الشعراء المعاصرين بينما الحق أنه - وإن بلغ شأواً بعيداً في هذا الجانب - كان مسبوقاً بأفذاذ من شعراء المهجر ، وشعراء الشام ، وشعراء مصر ، بل وشعراء تونس أيضاً .. ولسنا في مجال الموازنة ، وإنما سنكتفي بإيراد لمحات من شعر الطبيعة المضمخ بالجانب الإنساني لدى المهجريين باعتبارهم من الرواد الأوائل في هذا الجانب في عصرنا الحديث ؛ فقد كان أثر الغربة يشدهم نحو النزعة الوجدانية بظلالها الرومانسية ،

---

(١) أغاني الحياة ص ٤٠ .

وحرمهم على هجر الأغراض التقليدية فى شعرهم ، بل وفى الثورة عليها ، فهم لا يقلدون شعراء الطبيعة الأقدمين أمثال البحترى وذى الرمة ، وابن الرومى ، وابن المعتز ، وابن خفاجة ، وابن حمديس الصقلى ، ولكنهم يختلفون عنهم وإن أفادوا منهم بلا ريب ؛ فهذا إيليا أبو ماضى يقف عند «زهرة سجينة» فى إناء بأحد القصور فيأسى لمحبسها ، ويشعر بالألم والمرارة لذلك (١) .

لها الحجرة الحسناء فى القصر إنما أحب إليها روضة وكثيب
وأجمل من نور المصابيح عندها حباحب تمضى فى الدجى وتؤوب
ومن فتيات القصر يرقصن حولها على نغمات كلهن عجيب
تراقص أغصان الحديقة بكرة وللريح فيها جيئة وذهوب(٢)

وهذا ميخائيل يكر إلى الغاب فإذا أشجارها تحييه وتصافحه ، وتأخذه بين أحضانها :

---

(١) للشابى قصيد مماثلة يتحدث فيها عن «الزنبقة الذاوية» سبق عرضها ص ٤٨ من هذه الدراسة ـ نلمس فيها تعاطف إبى القاسم مع الزنبقة الذابلة وتفمره الأحزان من أجلها .. إلى جانب أنه معها فى حالة توحد وائتلاف :

وإن جرفتنى أكف المنون ، إلى اللحد أو سحقتك الخطوب
فحزنى وحزنك لايبرحان ، أليفين رغم الزمان العصيب

كذلك فهو لا يصفها وصفا حسيا ، وإنما يتعامل معها بصورة شعورية وكأنها تحس وتدرك فأى روح إنسانية وأى شفافية تلك التى يتعاطف صاحبها مع زنابق الحدائق !!

(٢) الجداول ص ١٧ ، ١٨ .

الغاب تحيينا وطيور الغاب تناجينا
الغاب تصافحنا ونصافحها وتهنينا(١)

أما «إلياس فرحات فهو يصور لنا الغابة عندما تسوى بين الحيوانات التى تعيش فيها ، فلا فرق بين كبير وصغير ، ولابين قوى وضعيف .

الغاب تجمعها من كل طائفة تحيا الصعاليك فيها كالأساطين

ويصور الشاعر المهجرى «محبوب الشرتونى» جمال الربيع فى الروابى ولكنه يتذكر عمر أزهار الربيع القصير فيقول :

إيه ما ألطف الربيع ، وأبهى زهره وهو مشرف من خبائه
كشباب الفتى أنيق ولكن لهف نفسى على قليل بقائه(٢)

وهذا الشاعر القروى (رشيد سليم الخورى) يؤكد على أن حب الطبيعة كان يجرى فى شرايين شعراء المهجر فيقول : «قد يتجسم شعورى بصلة القربى بينى وبين هذه الأكوان ، فانعطف على الشجرة أعانقها ، والصخرة أضمها ، والزهرة أناغيها ، والموجة أتقلب عليها ، وأمد ذراعى إلى السماء أحييها ، وأبعث للشمس بقبلاتى على أطراف بناتى» (٣) .

أما جبران - أستاذ الشابى وصديقه وقدوته ، ومثله الأعلى فكما يقول «نسيب عريضة» : «كان يرمى فى «مواكبه» إلى تأليه الغاب ، وياله من تأليه شبيه بحبور صرف ، وطمأنينة صافية ، تشعر بها النفس

---

(١) همس الجنون ص ٣٩ .
(٢) نقلا عن الشعر العربى فى المهجر ص ٥٤
(٣) ديوان القروى - المقدمة .

المستريحة الملتجئة إلى الغاب بعد هروبها من ضوضاء المدينة وسخافاتها ، فالغاب عنده كتاب مقدس ، كلماته تعاويذ تشفى من لذعات فلسفة الحياة(١) .

الخير فى الناس مصنوع إذا جبروا
والشر فى الناس لايفنى وإن قبروا

.....

فأفضل الناس قطعـــان يسير بها
صوت الرعاة ومن لم يمش ينـــدثر

ليس فى الغابات راع، لا . ولا فيها القطيع
فالشتا يمشى ولكن ، لايجـــاريه الربيع
خلق الناس عبيداً ، للذى يـــأبى الخضوع
فإذا ما هب يوماً سائراً سار الجميـــع
أعطنى الناى وغنّ فالغنا يرعى العقـــول
وأنين الناى أبقـــى من مجيـــد وذليـــل
ليس فى الغابات حزن ، لا . ولا فيها الهموم
فإذا هب نسيم ، لم تجىء معه السمـــوم
ليس حزن النفس إلا ظل وهـــم لايـــدوم
وغيـوم النفس تبدو من ثناياها النجـــوم
أعطنى الناى وغنّ فالغنـــا يمحـــو المحـن
وأنين الناى يبقى بعد أن يفنـى الزمن(٢)

ويقول محمد عبد الغنى حسن : "إن هذه النزعة الاعتزالية عند شعراء المهجر بالرجـوع إلى الغـــاب هى رد فعل للصدمة التى صادفوها أول

---

(١) الشعر العربى فى المهجر ص ٦٤ .
(٢) قصيدة المواكب ص ٩ .

مجرتهم إلى عالم هائج مائج ، يعج بضجيج الحياة ، وصخب الحياة العيش بعد ذلك الهدوء الذى كانوا غارقين فيه فى أرض الوطن» (١) .

ونعود إلى الشابى فنجده يأخذ من المهجريين وصفهم الفاتن للطبيعة كما يأخذ منهم كلية الاندماج فيها ، وكأنه يبحث عن ذاته الإنسانية بين حناياها .. وإذا كان المهجريون قد هربوا من ضجيج المدينة وصخبها ، فقد هرب الشابى من واقعه المر الأليم وغربته النفسية ، متجاوزاً هذا الواقع الأليم وهذه الغربة النفسية القاسية ، متطلعاً إلى عالم أسمى وأرحب ، باحثاً عن دنيا غير ملوثة بأفاعيل الحياة ومكر الناس وخداعهم ولؤمهم .. فلم يجد هذا العالم المثالى إلا هناك ، فى أحضان الطبيعة ، والطبيعة عند الشابى ليست مجرد شخوص تحيا وحياة تدب ... وإنما يندمج فيها لإحساسه المرهف بوجودها حتى ليشعر أن أحاسيسه موصولة بأحاسيسها كذلك فالطبيعة فى رؤيته حية متجددة ، وليست صامته متكلسة :

أقبل الصبـــح يغنى للحياة الناعسة
والربى تحلم فى ظل الغصون المائسة
والصبا ترقص أوراق الزهور اليابسة
وتهادى النور فى تلك الفجاج الدامسه
أقبل الصبح جميلا ، يملأ الأفـق بهاه
فتمطى الزهر ، والطير ، وأمواج المياه
قد أفاق العالم الحسى ، وغنى للحياه
فأفيقى ياخرافى ، وهلمى ياشيـاط (٢)

---

(١) الشعر العربى فى المهجر ص ٥٦ .
(٢) أغانى الحياة ٢٢٠-٢٢١ .

ويسوقنا الحديث عن اندماج الشابى بالطبيعة (جوهرها ومظاهرها) إلى مراقبته وهو يحاول الوصول إلى جوهر الطبيعة الصادقة النقية المعبرة عن الفطرة الأولى بعيداً عن التصنع و الخداع والمظاهر البراقة ، والمتمثلة فى حياة العواطف والشعور :

يمشى بالشعور والشعور فإنما ... دنياك كون عواطف وشعور
شيدت على العطف العميق وإنها ... لتجف لو شيدت على التفكير
واجعل شعورك فى الطبيعة قائداً ... فهو الخبير ببيتها المسحور

إلى أن يقول :

والعقل ، رغم مشيبه ووقاره ... مازال فى الأيام جد صغير(١)

وفى قصيدة «الجنة الضائعة» وفيها يرمز إلى الفطرة النقية والمبادىء القويمة ، والبراءة الجميلة ، ويتذكر أيام الطفولة الأولى ، ويتمنى عودتها ولكنها لاتعود !

أيام كانت للحيـــاة حلاوة الروض المطير
وطهارة الموج الجميل ، وسحر شاطئه المنير
ووداعة العصفور ، بين جداول الماء النمير
أيام لم نعرف من الدنيا ســوى فرح السرور
ونتبع النخل الأنيق ، وقطــف تيجان الزهور
وتسلق الجبل المكلل بالصنــوبر والصخــور
وبناء أكواخ الطفولة تحت أعشــاش الطيــور
نبنى فتهدمها الرياح فلا نضج ولانثــور ..
ونعود نضحك للمروج ولزنابق والغــدير(٢)

---

(١) المصدر السابق ص١٩٠، ١٩١
(٢) المصدر السابق ص ٢١٣، ٢١٤ .

آية جنة هذه ، وأى نقاء يطل علينا من خلال هذا الشعر المبهر ، والتصوير الفتان ؟ إنها الروح الإنسانية المتعاطفة مع عناصر الطبيعة الفضة تجللها بكارة الندى ، ونقاء الشعور وصدقه ثم تضيع هذه الجنة ، وتضيع معها أحلام الشاعر أمام الواقع المر ، واقع النفس البشرية التى هى مزيج من الشر والخير ، ومن الرحمة والقسوة ، وإذا بحياة الشابى تتحول من الهدوء إلى الثورة ، ومن النور إلى الديجور يقول محتجا :

واليوم أحيا مرهـق الأعصاب مشبوب الشعـور
متأجج الإحســـاس أحفل بالعظيم وبالحقيـر
تمشى على قلبى الحياة، ويزحف الكون الكبير
هذا مصيرى يابنى الدنيا، فما أشقى المصير ! (١)

أما قصيدة «مناجاة عصفور» فتحمل عدة صور شعرية متألقة بجمال الروح الإنسانية التى تذكرنا بأديب فرنسى (٢) كان يتحاشى النمل فى الحقول فلا تطأه - من الرحمة - قدماه .

يخاطب الشابى العصفور المترنم بجمال الربيع متعاطفاً معه ومواسياً له وشاكياً ما ألم به من منغصات الحياة .

يا أيها الشادى المغرد هاهنا ، ثملا بغبطة قلبه المسرور
غرد ففى قلبى إليك مـودة ، لكن مـودة طائر مأسـور
غرد ولا ترهب يمينى إننى مثل الطيور بمهجتى وضميرى
قبل أزاهير الربيع وغنها رنم الصباح الضاحك المحبور
واشرب من النبع الجميل الملتوى مابين دوح صنوبر وغدير
واترك دموع الفجر فى أوراقها حتى ترشفها عروس النور(٣)

---

(١) المصدر السابق ص ٢١٧
(٢) «جان جاك روسو» نقلا عن شعب وشاعر.
(٣) أغانى الحياة ص ١١٠ .

ثم نراه يتحد مع الطبيعة ويقبسها من الروح والحرارة مايجعلها تتحرك وتحس .. يخاطبها وهو مفتوح الحس والهوى والفؤاد :

وافتح فؤادك للوجود وخله لليم للأمواج للديجور
للثلج تنشره الزوابع للأسى للهول ، للآلام ، للمقدور
واتركه يقتحم العواصف هائما في أفقها المتبلد المقرور
ويخوض أحشاء الوجود مغامرا في ليلها المتهيب المخدور
حتى تعانقه الحياة ويرتوى من ثغرها المتأجج المجور
فتعيش في الدنيا بقلب زاخر يقظ المشاعر ، حالم مسحور
في نشوة صوفية ، قدسية هي خير مافي العالم المنظور(١)

حتى في أشعاره الثورية لاينسى الطبيعة ، فهو يمزجها بشعوره الوطني الثائر .. وها هو ذا يتحدث عن أحلام الندرة بالربيع والحياة الجديدة وذلك من خلال قصيدته إرادة الحياة :

ويمشي الزمان فتنمو صروف ، وتذوى صروف ، وتحيا آخر
وتصبح أحلامها يقظة موشحة بغموض السحر
تساءل أين ضباب الصباح ؟ وسحر المساء ؟ وضوء القمر؟
وأسراب ذاك الفراش الأنيق ؟ ونحل يغني ؟ وغيم يمر ؟
وأين الأشعة والكائنات؟ وأين الحياة التي أنتظر (٢) ؟

وعندما نعود إلى الغاب وتجربه الشابي يتوالى شعراء المهجر مرة أخرى أمام أعيننا ، ويبرز في مقدمتهم جبران عبر «مواكبه» التي مجد فيها الغاب (٣) . وجه الشابي بعد جبران ليهرب مثل أستاذه إلى الغاب لا فرار؟ من ضجيج المدينة وصخبها فالحياة في الشرق تختلف كثيرا عن

---

(١) المصدر السابق ١٩١ - ١٩٢ .

(٢) سبق عرض القصيدة وتحليلها في فصل الذوبان في هموم الوطن .

الحياة فى الغرب وإنما هرب الشابى من مواجهة واقعه المر ليقرأ هناك فى
الغاب ما كان يتطلع إليه من اللوحات الطبيعية غير المصنوعة ملتمساً راحة
وعزاءً لم يجدهما هناك لدى من تعامل معهم من الناس ... هرب إلى الغاب
الموحش عن الإنسان والإنسانية بعد أن افتقدهما بين قومه وأبناء
امته(١) ... هجر حياة الخوف والقلق والتوتر إلى عالم هادىء ، وحياة
غير صاخبة وذلك حيث السحر والظل الظليل ، والأضواء والأنغام ، حيث
التعامل مع الحب والأحلام والإلهام :

فى الغاب سحر رائع متجـــدد ... باق على الأيام والأعـــوام
وشذى كأجنحة الملائك غامـــض ... ساه يرفرف فى سكون ســـام
وجداول ، تشدو بمعسول الغنا ... وتسير حالمة ، بغير نظـام

ويقـــول :

فى الغاب دنيا للخيال وللرؤى ... والشعر والتفكير والأحـــلام
له يوم مضيـــت أول مـــرة ... للغاب أرزح تحت عبء سقامى
بخلته وحدى ، وحولى موكـــب ... هزج من الأحـــلام والأوهام
فإذا أنا فى نشـــوة شعـــرية ... فياضة بالوحـــى والإلهـــام

وهو يدخل الغاب ليتطهر من آثامه ، وينسى دنيا الناس بما فيها
من الأوهام والآثام .

---

(١) من ذلك إنه ذهب لحفل شعرى يلقى فيه قصائده فلم يجد فى انتظاره غير
.

فى الغاب ، فى الغاب الحبيب ، وإنه حرم الطبيعة والجمال السامى
طهرت فى نار الجمال مشاعرى ولقيت فى دنيا الخيال سلامى
ونسيت دنيا الناس فهى سخافة سكرى من الأوهام والآثام!
وقبست من عطف الوجود وحبه وجماله قبساً، أضاء ظلامى(١)

ونتواصل لوحات الغاب أمام أعيننا نتملى فيها - مع الشاعر - سحر الطبيعة وسحر الحبيبة فى حنان ولذة وذهول ، وخيال ممتع .

قدس الله ذكره من صباح ساحر فى ظلال غاب جميل
كان فيه النسيم يرقص سكرانا على الورد والنبات البليل
وضباب الجمال ينساب فى رفق بديع ، على مروج السهول
وأغانى الرعاة ، تخفق فى الأغوار والسهل ، والربا والتلول
يتغنى مع العصافير فى الغاب ويرنو إلى الضباب الكسول
وشعور الملاك ترقص بالأزهار والضوء ، والنسيم العليل (٢)

ويروى الأستاذ أبو القاسم كرو عن الشابى أنه «لم تكن للشابى طيلة حياته أمنية أو رغبة يحن إليها ويرغب فى تحقيقها ، كالغاب بسروه وسنديانه ، وبكل مافيه من نبات وحيوان ، وسماء صافية ، وماء نمير» (٣) :

فرأيت ألوان الحياة نضيرة كنضارة الزهر الجميل النامى
ووجدت سحر الكون أسمى عنصراً وأجل من حزنى ومن آلامى
فأهبت - مسحور المشاعر حالماً نشوان - بالقلب الكئيب الدامى
«المعبد الحى المقدس هاهنا ياكاهن الأحزان والآلام»

---

(١) أغانى الحياة ص ٢٦٦ - ٢٦٩
(٢) المصدر السابق ص ٢٣٠ .
(٣) نقلا عن شعب وشاعر ص ١٢٤ .

لقد تكاثرت الهموم حوله حتى انقطع لها وصار لها كاهنا :

فباخلع مسوح الحزن تحت ظلاله والبس رداء الشعر والأحلام(١)

أما قصيدة «من أغانى الرعاة» وهى أقرب ما تكون إلى شعر الغاب لدى الشابى فتقول عنها الدكتورة نعمات فؤاد «قطعة حية من فؤاد الطبيعة وصورة متحركة من مشاهدها الخلابة ، وهى أعلى وأعمق قصيدة تصف الرعاة وحياتهم والمراعى وجمالها (٢) ويؤيدها ما قاله الأستاذ خليفة محمد التليسى من أن «أغانى الرعاة» من أعمق شعر الطبيعة فى الأدب العربى (٤) .. والحق أن الشابى كان موفقًا فى شعر الطبيعة إلى الحد الذى يخرجه من حيز الوصف ، إلى جمال الهدف الإنسانى الذى يطل علينا من خلال كل قصيدة أو مقطوعة قالها الشاعر فى الغاب أو فى الطبيعة .

وإذا كان هناك من يقول بالتأثير المهجرى الواضح فى شعر الطبيعة عند الشابى ، فإن ذلك لا يغض من شأنه مع أن الطبيعة مرفق عام معها يتعامل الشعراء فى كل مكان وزمان ، وفى كل مكان ، وللشابى شخصيته الواضحة المستقلة .

---

(١) أغانى الحياة ص ٢٦٩ ومابعدها .

(٢) شعب وشاعر هامش ص ١٢٦ .

(٣) «الشابى وجبران» ص ٨٣ - ٨٤ نقلا عن شعب وشاعر ص ١٢٧ .

الحب والجمال والحلم بمدينة فاضلة

ظل الشابى يحلم بمدينة فاضلة تقوم على أرض الواقع يظلها الجمال والحب والإخاء الإنسانى فى معناه الكبير . وكان شأنه فى ذلك شأن معظم الإنسانيين الكبار والشعراء العظام .

وكل من يحلمون هذا الحلم الكبير يقدمون إلى الإنسانية عطاء فذاً له بقاؤه ، وله قيمته الفنية الممتدة .. والمدينة الفاضلة من مستلزمات الدعوة السامية إلى الإخاء الإنسانى وليد الحب الكبير لكل ماخلق الله فى كونه العظيم من مخلوقات بشرية سجدت لهـا الملائكة و مجدها الله فى كتابه العزيز (١) .

ولقد كان الشابى حالماً كبيراً .. وكان حلمه منبعثاً من منابع إلهامه ، واستقلاله الفكرى والفنى - كان هذا الحلم دافعاً إلى الثروة والتمرد وشعره كله يتميز بهذه اللهفة ، وهذا الحنين إلى صياغة عالم جديد فى الواقع العربى» (٢) .

وفى مدينته الفاضله تشعر بأواصر الحب المتمثل فى الروح الإنسانية والتفتح للحياة ، والشعور بالجمال المطلق ، وبجمال الحق والعدل ، وبغرس الإرادة الإنسانية ، والوقوف فى عظمة شامخة على جثة الألم واليأس .. والخوف والقهر ، وكأن الشاعر الرقيق الحالم كان يعوض ما نقصه من العافية بالتمتع الروحى - وليس البدنى - بالحياة وقد أنشد فى قصيدته الذائعة «صلوات فى هيكل الحب» أبياتاً تنزع نحو الكمال الإنسانى ، والبحث عن الصورة الصحيحة للحب الصحيح المتمثل فى الجمال المطلق والفطرة النقية ، والأحلام الجميلة :

---

(١) إشارة إلى قول الله سبحانه «ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا» (الاسراء: ٧٠) .

(٢) ثلاثون عاما مع الشعر والشعراء ص ٥٣٦ .

عذبة أنت كالطفولة ، كالأحـــلام ، كاللحن ، كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك ، كالليلة القمراء ، كالورد كابتسام الوليد
يا لها من وداعة وجمـــال ، وشبـــاب منعـــم أملـــود !
يا لها من طهارة ، تبعث التقديس فى مهجة الشقى العنيد!
يا لها من رقة تكاد يرف الورد منها فى الصخـــرة الجلمـود!

إنها صورة خيالية بعيدة كل البعد عن أوصاف الجسد والتى تعودنا سماعها من شعرائنا « إنها فعلا صلوات فى هيكل الحب لحبيبة من عالم ملائكى» .. إنها عذبة لكن مثل من ؟ إنها تشبه الطفولة فى براءتها بل هى كالأحلام الوردية فى ليالى الصيف ، إنها كاللحن المنساب ، كالصباح الجديد ، إنها كالسماء الصافية ، والليلة المقمرة ، كالورد الذى يضوع شذاه فيتعطر الجو من حولها ، وكابتسامة الوليد الخالية من النفاق المترجمة عن الطهر والبراءة .. ثم يستمر الشاعر فى وصف حبيبته متسائلا فمرة يصفها بأنها رسم جميل ، وأخرى بأنها فجر من السحر ، ومرة بأنها روح الربيع ، وكأن الشاعر يربأ بحبيبته عن هذه الأوصاف فهو لا يستقر على وصف إلا ريثما ينتقل إلى وصف آخر ، فالشاعر فى هذه القصيدة ينساب مع مشاهد الطبيعة وتختلط مشاعره بمشاعر حبيبته فكلما أبصرها تمشى خفق قلبه وأينع الزهر فى عمره المجدب ، وهو يعبر عن اتصاله المباشر بحبيبته وبالطبيعة »(١):

كلمـا أبصرتك عينـــاى تمشين بخطو موقـع كالنشيـد
خفق القلب للحياة ، ورف الزهر فى حقل عمرى المجرود
خطـوات سكرانة بالأناشيـد ، وصوت كرجـع نـاى بعيد

ويختتم الشاعر قصيدته الرائعة بالحديث عن فؤاده الذى حوله الكون بكل مافيه ومن فيه فيقول :

آه يازهرتى الجميلة لو تدرين ماجد فى فؤادى الوحيد
فى فؤادى الغريب تخلق أكوان من السحر ذات حسن فريد
وشموس وضاءة ونجوم تنثر النـــور فى فضـــاء مديد
وربيع كأنه حلم الشاعر فى سكـرة الشبـاب السعيـد
ورياض لاتعرف الحلك الداجى ، ولاثورة الخريف العنيـد
وطيـور سحـرية تتناغى بأناشيـد حلـوة التغريد
وقصور كأنها الشفق المخضوب أو طلعة الصباح الجـديد
وغيـوم رقيقـة تتهادى ، كأباديد من نثار الورود(١)

ويعلق الدكتور محمد مندور على هَذه القصيدة مبهوراً بها فيقول : «إنها تبهرنا لا بجدة معانيها أو غرابة أسلوبها وصورها ، بل بتلك الروح الشابه الأثيرية التى تسبح فيها تلك الصلوات فيشجينا عبيرها ، وكأننا فى هيكل من هياكل العبادة (٢)» .

والأمر - فى تقديرى - لا يحتاج إلى هياكل عبادة لكى يكون حباً خالداً وإنما هو التصوير الصادق وليد الشعور الصادق الذى جعل الشاعر يعيش بوجدانه كله ، وبأحاسيسه مجتمعة ممتعاً بخصوبة نفس ، وترف خيال ، ووضوح رؤية ، مبتعداً عن الضبابية أو التحليق فى آفاق غائمة لا حس فيها ، ولا فن ، ولا شعور .. ومن ثم كان شعر الحب لدى الشابى لا

---

(١) قصيدة صلوات فى هيكل الحب » ديوان أغانى الحياة ص ١٨٣ إلى ١٨٧ .
(٢) الشعر المصرى بعد شوقى (الحلقة الثانية) ص ٩٥ .

يقف عند صورة الحب الذاتى بمعناه الانفرادى المنغلق وإنما يلجأ إلى الحب فى معناه المطلق بصوره السامية ، متخذاً منه ركناً يركن إليه مما أصابه من سقام ولوعة ، وشقاء وهموم وعناء ، ففى قصيدة «أيها الحب» نلمس هذه الروح بما تحمل من صور جمالية :

أيها الحب ! أنت سر وجودى ... وحياتى وعزتى وإبائى
وشعاعى مابين ديجور دهرى ... وأليفى ، وقرتى ، ورجائى
ياسلاف الفؤاد ليا سم نفسى ... فى حياتى ! ياشدتى، يارخائى
أهيب يثور فى روضة النفس ... فيطفى، أم أنت نور السماء؟
أيها الحب قد جرعت بك الحزن ... كئوسا ، ومااقتضيت ابتغائى
فبحق الجمال يا أيها الحب ... حنانيك بى ! وهون بلائى
ليت شعرى ! يا أيها الحب قل لى: من ظلام خلقت أم من ضياء(١)؟

ولأن الشابى يقدس الحب بمعناه العذرى السامى ، ولأنه يخلطه بالطبيعة التونسية الساحرة نرى فى تصويره وفى عواطفه من الألق والعطر ، والرقة والسحر ما يذكرنا بالربيع والفجر والأصيل والغروب ولمس النسيم ، وهمس الزهور ... والجمال الآخاذ :

فإذا ما لاح فجر ، كان فى الفجر سناه
وإذا غرد طير ، كان فى الشدو صداه
وإذا ما صاغ عطر، كان فى العطر شذاه
وإذا ما رف زهر ، كان فى الزهر صباه
وتوشى هذه الأكوان بالسحر رؤاه
.....

---

(١) أغانى الحياة ص ٢٠٠١٩ .

عبقرى السحر ، ممراح وديـــع فى سماه
ينسج الأحلام فى قلبى بأضـــواء الحياه
ويغيننى فأنســـى فى مسرات غنـــــاه
كل مافى الكون من حزن وأفراح عداه(١)

ويمضى مع خياله المتألق بالرؤى ليبنى للحب معبداً يقع فى أحضان الطبيعة الجميلة حيث الهدوء والجمال والسكون .

وسكتنا وغرد الحب فى الغاب فاصغى حتى حفيف الغصـــون
وبنى الليل والربيع حوالينا من السحر والرؤى والسكون
معبداً للجمال ، والحب شعرياً مشيداً على فجـــاج السنين
تحتـه يزخـــر الزمان ويجرى صامتاً فى مسيله المحـزون

وتمر الأيام ، والحزن والموت بعيداً عن ظله المأمون (٢) ويودع الشابى حبه وحبيبته فقد خطفه الموت ، وأقامت له الحياة مأتماً فهو ينثر الزهور على هذا الحب الراحل فى قصيدته «مأتم الحب» .

ليت شعـــــرى !
أى طيـــــر
يسمع الأحزان تبكـى بين أعماق القلوب
ثم لايهتف فى الفجر برنـــات النحيـب
بخشوع ، واكتئاب؟
.....

---

(١) أغانى الحياة ص ١٧٩ .
(٢) أغانى الحياة ص ٢٤٨ .

فى الدياجـــــى

كم أناجـــــى

مسمع القبر بغصات نحيبى ، وشجونى

ثم أصغى ، علنى أسمع ترديد أنينى

فأرى صوتى فريد !

.....

فأنـــــادى

« يافـــــؤادى »

مات من تهوى ! وهذا اللحد قد ضم الحبيب

فابك ياقلب بما فيك من الحزن المذيب

ابك ياقلب وحيد !

.....

ذل قلبـــــى

مات حبـــــى !

فاذرفى يا مقلة الليل ، الدرارى عبرات

حول حبى ، فهـــو قد ودع آفاق الحياة

بعد أن ذاق اللهيـــب

.....

واندبيـــــه

واغسليـــــه

بدموع الفجر ، من أكواب زهر الزنبق

وادفنيـــــه بجلال ، فى ظلال الشفـــق

ليرى روح الحبيـــب (١)

---

(١) أغانى الحياة ص ٤٤، ٤٥، ٤٦ .

إنه الشعر الذى يجذب القلوب المحبة ، ويهز النفوس العاشقة حتى ليجعلها تتعاطف معه ، وتأنس إليه وتمضى معه على درب الإخاء والمودة والحب الراشد العظيم .

والشابى فى حنينه إلى براءة الطفولة ، وفى حلمة الكبير بالمدينة الفاضلة وسعيه نحو الكمال الإنسانى ، وبحثه عن الجمال فى كل المعانى وإنما يمضى على طريق السمو الإنسانى الشامخ منطلقًا إلى عالم سحرى عبقرى الرؤى صوره له الخيال المجنح وهو فى أزهى حالات وعيه بالكون الكبير ، وبالحياة التى تصطخب حوله .

وهكذا فقد جمع الشابى فى شعره أهم دعائم الإنسانية الخالدة : الحياة المتجددة والطموح الإنسانى ، والطبيعة النقية المفطورة على الخير والحق والعدل ، والحب والجمال .

الشعور باقتراب الموت

أدرك الشابى حينما هاجمته علة مرض القلب - بعد موت أبيه - أن جسده النحيل لن يتحمل هذا المرض العضال فعاش معذبًا ومطاردًا ؛ لأنه كان مقبلا على الحياة محبًا لها ، حفيًا بها ... يود أن يعيش ويتمتع بمحاسنها وجمالها وطيباتها - فهو ليس مثل غيره من المرضى ممن تظلم الحياة فى وجوههم وعيونهم وقلوبهم فهم فى حالة توجع دائم، وسخط عظيم .. بل إن الشابى وقد شعر بدنو الموت منه كان يعيش بين يأس وأمل ، وحزن وفرح وإقبال على الحياة وإدبار عنها (١)

وهو فى الحالات كلها لم يفقد موقفه الفلسى الواضح وشعوره بأحقية الموت ووجوبة - ولكنه - من الجانب النفسى - كان يشعر أنه بدنوه

---

(١) اتضح ذلك فى عنصر «الحيرة والقلق والتوتر» الذى كان يعيشه الشابى بأعصابه ... يهرب منه ويعود إليه !!

بالصبابه ... يهرب منه ويعود إليه !!

من الموت يقترب من لحظات السعادة الأبدية ليشرب من معينها ، وينهل من فيضها .. وكأنه يرى أن الموت سيحط عن كاهله الأحمال الثقيلة ، والأعباء الصعاب ، والشعور بالمطاردة وذلك مما يرتد عليه ببعض السعادة الغامضة التى تهدهد من الأوجاع والألم .. ولا عجب فأحيانًا يرى بعض الناس فى عناصر السلب ما افتقدوه فى عناصر الإيجاب ، ولله فى خلقه شئون»!!

أقبل الشابى على الموت الذى يشعر بدنوه شبه سعيد ما دام الموت هو الخلاص من العذاب والعلل والمواجع ولكن هل زايلته الحيرة ... وهل تجنبه القلق؟

الحق أنه كان مترددًا فبينما نسمعه يهتف :

خفق القلب للحياة ، ورف الزهر فى حقل عمرى المحدود
وانتشت روحى الكئيبة بالحب وغنت كالبلبل الغـــريد

نراه يبكى وهو يقاوم قائلا :

لست يأمسى أبكيك لمجد أو لجاه
سلبته منى الدنيا ، ويزننى رؤاه
فأنا احتقر المجد وأوهام الحياة

ثم يواصـــل شكـــواه :

ياصميم الحياة كم أنا فى الدنيا غريب أشقى بغربة نفسى
فى وجود مكبـل بقيـود ، تائه فى ظـلام شـك ونحس
فاحتضنـى وضمنى لك بالماضى فهذا الوجود علة يأسى

ويهتف كذلك :

لم أجد فى الوجود إلا شقاء سرمديًا ولذة مضمحلة

ونعود فنراه فى حالة تعانق مع الوجود ، وحب الحياة ، وإقبال على متعها وملذاتها :

أنت ما أنت ؟ أنت رسم جميل عبقرى من فن هذا الوجود

ويرى الأستاذ الشاذلى القليبى "أن هذه الثنائية الغريبة لوجه الحياة عند أبى القاسم الشابى تخفى عملية سحرية بها تضىء العالم فى بعض نواحيه ، ويكتسب مسحة من الجمال .. وتلك العملية السحرية تكون باتصال هذا العالم الدنيوى بقبس من الجمال الخالد الذى ستتصل به روح الشاعر بعد جلائه عن غياهب هذا الكون .. أى بعد الممات ... وهنا ينكشف معنى الوجود الحقيقى هذا الوجود السرمدى الروحانى .. الذى سيكون له بعد خلاصه من قيود المادة ذلك الوجود الصحيح الذى طالما رمز إليه أبو القاسم (بالفجر البعيد) و(بالصباح الجديد) وإذ ذاك يفارق الشاعر الشقاء ، ويودع الألم ليحيا حياة السعادة الأبدية (١)» .

قد دعانى الصبح وربيع الحياة
الوداع ، الوداع يا جبال الهموم
ياضباب الأسى يافجاج الجحيم
قد جرى زورقى فى الخضم العظيم
ونشرت القلاع فالوداع الوداع (٢)

ويقترب الموت من الشابى منذ وقت مبكر - - فهو يتعامل معه قبل رحيل أبيه وقبل شعوره بعلته - لقد رحل حبه ، ومات أمله بموت من يحب:

---

(١) نقلا عن دراسات عن الشابى ص ١٢ .
(٢) أغانى الحياة ص ٢٣٦ .

بالأمس قد كانت حياتى كالسماء الباسمة
واليوم قد أمست كأعماق الكهوف الواجمة

.....

قد كان لى ما بين أحلامى الجميلة جدول
يجرى به ماء المحبة طاهراً يتسلسل
هو جدول ، قد فجرت ينبوعه فى مهجتى
أجفان فاتنة أرتنيها الحياة لشقوتى

أجفان فاتنة تراءت لى على فجر الشباب
لعروسة من غانيات الشعر فى شفق السحاب

.....

ثم اختفت خلف السماء وراء هاتيك الغيوم
حيث العذارى الخالدات ، يمسن مابين النجوم

.....

قد كان ذلك كله بالأمس ! بالأمس البعيد
والأمس قد جرفته مقهورا يد الموت العتيد(١)

وكذلك فقد ذكرها الشابى فى قصيدة «رثاء فجر» فقال :

ياأيها الغاب المنمق بالأشعة والورود !
ياأيها النور النقى ! وأيها الفجر البعيد !
أين اختفيت ومالذى أقصاك عن هذا الوجود
آه ! لقد كانت حياتى فيك حالمة تميد
بين الخمائل والجداول ، والترنم والنشيد
آه ! لقد غنى الصباح ، فدمدم الليل العتيد

---

(١) أغانى الحياة ص ٨٢،٨٣،٨٤

وتألق النجم الوضيء ، فأعتم الغيم الركود
ومضى الردى بسعادتى وقضى على الحب الوليد(١)

وفى أوائل ١٩٣٠م يكتب الشابى فى مذكراته «تلك الريحانة التى أنبتتها فى سبيلى أنا مل الحياة هاهى تنظر إلى بعينها الجميلتين بأحلام الملائكة ثم تشير إلى براحتها الجميلة الساحرة وبأناملها الدقيقة الوردية، ثم هاهى تطبع على ثغرى بشفتيها المعسولتين رحيق الحياة »(٢)

وكما أسلفنا فقد حفر الموت فى الحياة القصيرة لذلك الشاعر الفريد خليجًا لا يمكن تجاوزه ، ولا إنكار وجوده .. ففى أواسط عام ١٩٢٩ يمرض والده المرض الأخير ورغب فى العودة إلى مسقط رأسه فرافقه ولده أبو القاسم وسهر عليه فى أيامه الأخيرة ، وكانت ساعات الاحتضار وآلام الأطفال وأحزانهم حول أبيهم من الساعات الدامية العميقة التى عصرت قلب الشاعر وخياله ودموعه .. ولم يتحدث الشابى عن شيء بألم دام ، وحسرة مؤثرة قاتمة كما تحدث عن لحظات أبيه الأخيرة ، وعن خيال الوالد الذى ظل يتراءى له بعد الموت مع أشباح الأعزاء المفقودين الآخرين ومن بينهم صديقته فى الطفولة وحبيبة القلب اليافع الوديع (٣) .

ويخاطب الشابى الموت ليسأله ماذا يريد منه ، ولماذا يطارده وهو الذى يهرب منه ولكنه يرحب به ففى جوفه الراحة الأبدية حتى ولو كانت كأسة كدرة مرة :

ياموت ماذا تبتغى منى وقد مزقت صدرى ؟
ماذا تود ، وأنت قد سودت بالأحزان فكرى

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٦،١٧٧

(٢) الأعمال الكاملة للشابى جـ٢ ص ٦، ٧ .

إن كنت تطلبنى فهات الكأس أشـربها بصبر
أوكنت ترقبنى فهات السهم ، أرشقه بنحـرى
خذنى إليك ! فقد تبخر فى فضاء الهم عمرى
خذنى إليك ! فقد ظمئت لكأسك الكدر الأمر(١)

وذلك كله يعنى إيمان الشابى اليقينى بالموت الذى لا مفر منه ولا مهرب ، ويقوده هذا الشعور من حيث يدرى أو لا يدرى إلى معانقة الروح الإنسانية العامة ، مادام الموت هو القدر المفروض على الصحيح والسقيم والقوى والضعيف ، والشقى والسعيد .. إنه الإخاء الإنسانى فى مواجهة صعاب الحياة ، وقسوة الموت أو سعادته الأبدية الغامرة مثلما كان يتصور .

والموت بكل مايحمل من معنى العدم يحمل الجانب الإنسانى فى رؤية الشابى فهو مرتقى نحو السعادة الأبدية التى تشمل حيوات الناس بعد تخلصهم من أسر الحياة بكل مافى باطنها من هموم وأثقال جسام.

ومع ذلك نرى الشاعر الفريد مستسلمًا يائسًا على الرغم من أن طموحاته الكبرى ، وإرادته الصلبة ، واستبشاره بالموت - تلك التجربة الصعبة والتى لا مفر من لقائها والتعامل معها مهما كانت مرارتها أو حلاوتها فنراه يختتم قصيدته «فى ظل وادى الموت» بهذا البيت الحزين الذى يصحب روحه وهى تعرج إلى مثواها الأخير :

جف سحر الحياة ياقلبى الباكى فهيا نجرب الموت هيا

وهـــل تملك - أيها الشاعر - غيـــر ذلك ؟

---

(١) أغانى الحياة قصيدة «ياموت») ص ١٤٠ ومابعدها .

وبعـــــد

وبعد فهذا ملمح - من بين ملامح كثيرة - ومحور من محاور ذلك الشاعر العبقرى صاحب الخمسة والعشرين ربيعًا لم يتجاوزها وإنما قصر عن بلوغها هذا الصبى يحس - وهو دون العشرين - إحساس الملهمين من الشعراء الكبار فيقول معتزًا بنفسه وبفنه وشعره :

شعرى نفاثة صدرى إن جاش فيه شعورى
لولاه ما انجاب عنى غيم الحياة الخطير
ولا وجدت اكتئابى ولا وجدت سرورى

.....

لا أنظم الشعر أرجو به رضاء الأمير
بمدحة أو رثاء تهدى لرب السرير
حسبى إذا قلت شعرًا أن يرتضيه ضميرى (١)

ولو هيىء لهذا الشاعر أن تمتد حياته لأعطى وأجزل ، وأينع وأثمر ، فقد كانت شاعريته - دون تعصب أو مبالغة - كالنهر الفياض ، بل كالبحر الزاخر .

وقد درست ما وصل إلى أيدينا من شعره عبر ديوانه الوحيد «أغانى الحياة» ومجموعة أعماله الكاملة فوجدت ما قاله الشاعر الناقد الدكتور «أحمد زكى أبو شادى» عن شاعرية الشابى صحيحًا لا عوج فيه «فشعره شعر العبقرية والتفوق ، فله قدسية نورانية يصعب تعريفها ، وسواء لدينا فجرها أو شروقها لأنها على اختلاف منازلها تتألق بالجمال ، وتنم عن رسالة سامية ، لو لم يقلها شعرا لتألقت فى وجهه نورًا (٢) .

---

(١) قصيدة (شعرى) ديوان أغانى الحياة ص ٢٦ .
(٢) قضايا الشعر المعاصر ص ١٠٦ .

وإنا وافقنا أبا شادى فى دعواه ، فنحن فى حاجة ماسة فى عصرنا الراهن - عصر الآلة الطاحنة ، والقيم المنهارة ، والمثل المتسربة - إلى شاعر جديد يعيد للشعر سطوته ، وعبقريته ، ومجده وجماله ، وسحره وبهائه ، وروحه الإنسانية السامية ؛ فالشعر وحده - بين أشكال الفنون جميعاً - هو القادر بشفافيته - مهما كان درجة صدقه .. أن يصحح مسيرة الإنسان والإنسانية بين مسالك ودروب هذا العالم المضطرب العنيف ... ولكن أين هو الشعر ؟ وأين هم الشعراء ؟!!

د/ محمد جاد البنا

مصادر البحث ومراجعه

أولا : المعاجم (اللغوية والاصطلاحية) :

١- المصباح المنير : أحمد بن محمد بن على المقرى الفيومى - الطبعة الثامنة - بولاق ١٩٣٩ .

٢- المعجم الأدبى : جبور عبد النور - دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٩ .

٣- المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية - الطبعة الثانية مصر ١٩٧٣م .

٤- معجم المصطلحات الأدبية : مجدى وهبة - مكتبة لبنان - بيروت .

٥- معجم المصطلحات العربية : مجدى وهبة وكامل المهندس . فى اللغة والأدب مكتبة لبنان - الطبعة الثانية ١٩٨٤م .

ثانيا: المصادر :

١- أبو القاسم الشابى : ١- ديوان أغانى الحياة (طبعتان) :
أ - الدار التونسية للنشر - تونس ١٩٧٠م .
ب - دار العودة - بيروت ١٩٧٢ م .
٢- الأعمال الكاملة لأبى القاسم الشابى - الدار التونسية للنشر ١٩٨٤ م .

ثالثا : المراجع :

١- أبو القاسم محمد كرو : دراسات عن الشابى - الدار العربية للكتاب - طرابلس ١٩٨٤ .

٢- أحمد زكى أبو شادى : قضايا الشعر المعاصر - الطبعة الأولى ؛ القاهرة ١٩٥٩ .

٥- **ثريا ملحس** : القيم الروحية فى الشعر العربى - دار الكتاب اللبنانى - بدون .

٤- **جبران خليل جبران** : المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران بيروت ١٩٥٩ .

٥- **حمدى عبد اللطيف** : الشابى شاعر الخضراء (سلسلة مذاهب وشخصيات) الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٥م .

٦- **خير الدين الزركلى** : الأعلام (الجزء الخامس) دار العلم للملايين بيروت - الطبعة التاسعة ١٩٩٠م .

٧- **رجاء النقاش** : أ - أبو القاسم الشابى (شاعر الحب والثورة) دار التعليم بيروت - الطبعة الأولى ١٩٧١م .

ب - ثلاثون عاماً مع الشعر والشعراء - دار سعاد الصباح - القاهرة ١٩٩٢ .

٨- **د. زكى نجيب محمود** : مع الشعراء - دار الشروق - القاهرة بيروت ١٩٨٠ ط٢ .

٩- **زين العابدين السنوسى** : الأدب التونسى فى القرن الرابع عشر - الدار التونسية للنشر ١٩٧٩ ط٣ .

١٠- **سيد قطب** : مهمة الشاعر فى الحياة - بدون مطبعة وبدون تاريخ .

١١- **د. شوقى ضيف** : دراسات فى الشعر العربى المعاصر - مكتبة الخانجى القاهرة ، ومكتبة المثنى ببغداد .

١٢- **عبد السلام المسدى** : قراءات مع الشابى والمتنبى والجاحظ وابن خلدون دار سعاد الصباح - القاهره ط ١ ١٩٩٣ .

١٣- **د/عبد الغنى إبراهيم** : فلسفة الحياة بين أبى القاسم الشابى وإيليا أبى ماضى ، رسالة دكتوراه ١٩٨٨ - مكتبة كلية اللغة العربية بالمنصورة .

١٤- **د/ عز الدين اسماعيل** : مقدمه ديوان أبى القاسم الشابى - دار العودة بيروت ١٩٧٢ .

١٥- د/ عمر فروخ : الشابى شاعر الحب والحياة - دار العلم للملايين - بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨٠م .

١٦- محمد إبراهيم أبو سنة : أ - تأملات نقدية فى الحديقة الشعرية - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩م .

ب- تجارب نقدية وقضايا أدبية - سلسلة اقرأ دار المعارف - القاهرة .

١٧- محمد الأمين الشابى : ترجمة حياة الشابى - ملحق بديوان أبى القاسم الشابى الدار التونسية للنشر - تونس ١٩٧٠ م .

١٨- د/ محمد سعد قشوان : مدرسة أبولو الشعرية فى ضوء النقد الحديث دار المعارف - مصر ١٩٨٢ م .

١٩- محمد صالح الجابرى : الشعر التونسى الحديث (تراجم ومختارات) الشركة التونسية للنشر والتوزيع - تونس ١٩٧٦ ط ١ .

٢٠- محمد عبد الغنى حسن : الشعر العربى فى المهجر - مكتبة الخانجى - القاهرة ١٩٥٥ ط ١ .

٢١- د / محمد مندور : الشعر المصرى بعد شوقى (الحلقة الثانية) دار النهضة القاهرة ١٩٦٩ .

٢٢- ملتقى أبى القاسم الشابى : (معانى التجاوز فى شعر الشابى) مجموعة بحوث - الدار التونسية للنشر - تونس ١٩٨٤ .

٢٣- د / نبيل راغب : المذاهب الأدبية - مكتبة مصر القاهرة ١٩٨٤ .

٢٤- د / نعمات فؤاد : شعب وشاعر (أبو القاسم الشابى) الدار العربية للكتاب لبنان - تونس ١٩٧٧ م .

رابعـــا : الدوريـــات :

١- المجلة العربية : المملكة العربية السعودية - الرياض العدد ٥٤ السنة السادسة مارس ١٩٨٢ .

٢- مجلة الرســالة : السنة الثامنة عشرة العدد ٩٧ .

٣- مجلة الفكـــر : تونس - أعداد مختلفة .

٤- مجلة المجلـــة : مصر العدد السادس . يونيه ١٩٥٧ .